

ليونيل روسّان

التفتُّح النفسي - الحركي عند الطفل

عويدات للنشر والطباعة
بيروت - لبنان

التفتُّح النفسي ـ الحركي
عند الطفل

Ouvrage publié avec l'aide du Ministère Français
chargé de la Culture - Centre national du livre

ليونيل روسّان

التفتُّح النفسي ـ الحركي

عند الطفل

تعريب

د. جورجيت الحداد

عويدات للنشر والطباعة

بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى 2001

مقدمة المترجم

يقدم هذا الكتاب دراسة مستفيضة في مجال علم نفس الطفل ويشكل مرجعاً أساسياً للباحثين والطلاب المهتمين بهذا الموضوع. كما أنه يتوجه في الوقت نفسه إلى الأمهات والآباء الذين يعيشون تجربة الأمومة والأبوة ليضع لهم منطلقات أساسية تساعدهم في فهم نفسية أطفالهم وتتبع تطورهم من خلال الانتباه لمراحل نموهم وما تتضمنه كل مرحلة.

إن علم النفس بفضل الأبحاث والدراسات التي قام بها العلماء والأطباء والتربويون يفاجئنا حين يعيد الإنسان ليس فقط إلى وضعه في أحشاء أمه التي حملته في أحشائها بل أكثر من ذلك إلى الفكرة المستقرة في عقل الوالدين وخيالهما عنه وحتى إلى أبعد من ذلك أيضاً إلى مسيرة حياة أهله ونفسيتهم وشخصيتهم وتاريخهم. . .

ففي الجزء الأول من الكتاب الذي يفصل العناصر الأساسية للنمو نطلع عن كثب على تفاصيل دقيقة قد لا يعتبرها البعض هامة لكونها عادية أو «طبيعية» فيمرون عليها مرور الكرام، غير أنه في الحقيقة، إن دقائق الأمور هذه بحد ذاتها هي التي تعرّفنا إلى النمو السليم للطفل، وبالتالي إن أي تغير أو نقصان أو تأخير فيها يعني بشكل أو بآخر حالات من التخلف أو الإعاقة أو المرض وهذا ما هو على علم به أصحاب الاختصاص في هذا الميدان. إن مجموع هذه التفاصيل التي تتناول نمو السمع أو البصر أو الشم الخ. . تشكل بحد ذاتها وثيقة هامة يستند إليها الأهل لمراقبة سلامة أطفالهم والكشف السريع عن أية مشكلة قد يكون بالمستطاع تداركها في حينها. . .

أما نظريات علماء النفس والتحليل النفسي حول الطفولة التي تناولها المؤلف في الجزء الثاني من الكتاب فقد توقفت بنوع خاص عند مراحل النمو النفسي

والحركي والنضج العصبي والعقلي وتوافقها مع مراحل عمرية معينة تبدأ في الأشهر الأولى من العمر وصولاً إلى سن السادسة تقريباً. تنوعت النظريات مدعومة بالأبحاث لتبرهن أن الطفل ليس ذلك الكائن الصغير بل هو هذه الشخصية الإنسانية التي تتشكل تدريجياً استناداً إلى تفاعل عوامل وراثية وبيولوجية وأخرى تتعلق بالحياة الرحمية ومن ثم بالعوامل الاجتماعية الثقافية فينتج عن كل ذلك إنسان فريد يتميز بفكر وعقل ونفسية خاصة به، إنها نتاج «تعقيد ودينامية في التطور» كما يقول هنري فالون ولا يمكن فهم مراحل هذا التطور إلاّ باعتماد «الدراسة التكوينية والتقارنية والجدلية والمادية» وهي ما اتصفت به أبحاث هذا الفيلسوف نفسه.

ولا تقل المساهمات النظرية الأخرى أهمية في اطلاعنا على إواليات النمو النفسي والعقلي والحركي عند الطفل كنظرية جان بياجيه التي قد يجوز أن تختصر في الأسئلة الثلاثة الأساسية التي حاول الإجابة عنها وهي:

- ما هو الفارق النوعي بين فكر الطفل وفكر الإنسان البالغ؟.
- كيف ينظر الطفل إلى العالم ويفسر الظواهر؟.
- ما هي التسلسلات التي ينتقل الفكر عبرها من بنية معينة إلى أخرى؟.

أما الثورة التي أحدثتها نظرية فرويد في مجال علم النفس والتحليل النفسي فقد زوّدت الباحثين بأدوات مكنتهم من الغوص في أعماق النفس البشرية إلى مستويات اللاوعي لنبش دفائن منها هي دلائل على تناقضات وصراعات ومعاناة في النفسية البشرية والفكر الإنساني تساهم طرق تكوّنها وحلها السليمة في بناء الشخصية السليمة الفاعلة والناشطة في المجتمع، وهذا رغم الانتقادات التي وجهها علماء الأنثروبولوجيا لهذا التيار بناءً على دراساتهم للشعوب البدائية وسكان الجزر المتوحشين التي برهنت على عدم كونية النظرية الفرويدية المعتمدة على العقد النفسية كعقدة الفطام وعقدة أوديب والكبت الجنسي الخ...

ولم يخلُ الكتاب من الإشارة إلى الدراسات التي هي نوع من توجيهات عملية للأهل حول كيفية التعامل مع أطفالهم الصغار ليواكبوا تطورهم ويقودوهم بأمان عبر حقبات نموهم المشار إليها ألا وأهمها مساهمات الدكتور سيوك الشهير.

وقد جاء دفتر يوميات الطفل الصغير في خاتمة الكتاب ليتوّج عملاً أخذ

الصفتين العملية والنظرية معاً، وهذه اليوميات هي لسان حال الطفل الذي يصور بشكل مفصل ودقيق تطورات حياته خطوة خطوة على الصعيد الفكري والحسي والحركي والنفسي... وهي تصلح لأن تكون روزنامة للأمهات الحديثات تطلعهن على تفاصيل في حياة أطفالهن هي مدعاة للتعجب والفرح في الوقت نفسه.

وأخيراً رغم أن هذا العمل يكتفي بالإشارة إلى الخطوط الكبرى لنظريات النمو إلاّ أنه يتوقف بنوع خاص عند كل ما يمكن أن يطال أبعاد النمو المختلفة عند الطفل الصغير منذ تكونه وحمله في الأحشاء حتى نهاية مراحل الطفولة تقريباً، لذلك هو مرجع أساسي يدعم ويغني المكتبات العربية ويسهل على المهتمين الولوج في ميدان علم النفس التكويني والتربوي بشكل عام.

د. جورجيت الحداد

مدخــل

إن النمو النفسي ـ الحركي عند الطفل يدل على مجمل العمليات التي تسمح للرضيع بأن يصبح بالغاً بعد المرور بعدة مراحل. فمعرفة مختلف المراحل هذه ذات أهمية بالغة من الناحية النظرية: كيف يصبح المولود الجديد بالغاً، ما هي الأطوار الطبيعية لهذا النمو وما الذي يمكن أن يوقفها؟ إن المعرفة الجيدة لهذا التطور يسمح للأهل والمربين والأطباء بالتقصي الباكر لعاهة محتملة (إعاقة حركية دماغية، تخلف عقلي، عاطفي الخ. .) وبمحاولة التصدي لها إذا أمكن ذلك. إن نجاح التطور النفسي للولد يحدد بشكل كبير مستقبله وكل اضطراب هام إذا أهمل أو ظل مجهولاً قد تكون له عواقب خطيرة.

لكن معرفة هذه المراحل ليست فقط نظرية. فهي أيضاً ذات أهمية عملية كبيرة بالنسبة إلى الأهل. إن فهم علم نفس الطفل هو ذو دور تربوي أساسي إذ إن معظم الأخطاء في تربية الطفل، ومعظم الاختلال في علاقة الأهل بالأولاد تتأتى من عدم فهم المراحل الطبيعية للنمو. فمراقبة الولد أساسية وتتطلب من الأهل تكيّفاً دائماً لتفسير تصرفاته وفهم ثغثغته وتلبية حاجاته. فإن كان هذا الأمر سهلاً نسبياً في البداية تجاه كائن صغير تابع وظاهرياً سلبي نجد أنه سريعاً ما ستظهر الصعوبات، إذ إن الأم والأب يجب أن يتحالفا مع رضيع له متطلباته وحاجاته الخاصة.

إن فهم حاجة الأطفال غالباً إلى المص أو القبول بطقوس معينة للنوم مثلاً يجنب كثيراً من الشقاق. كما أن تعليم رضيع بعمر ثلاثة أشهر السيطرة على عضلاته الصارة هو شيء محال بقدر ما هو محال تأنيب طفل بعمر 10 أشهر لعدم فهمه الأوامر الموجهة إليه. وليس هناك من مدعاة للقلق إذا لم يمش الطفل عند

بلوغه شهره العاشر. إن معرفة مسألة «الخوف من الغريب» أو «قلق الشهر الثامن» تسمح بتفسير بكاء الطفل وتجنب اختيار هذا العمر مثلاً لإدخاله إلى دار الحضانة. إن التحسب لمرحلة «اللا»، ومبادىء المعارضة أو ظاهرات «عقدة أوديب» توفر على الأهل الحديثين الكثير من المشاكل، فاختصار تطور وعي الطفل الصغير بمئة صفحة وهو موضوع شديد الاتساع يبدو أمراً مستغرباً. لذا اخترنا ثلاثة أنواع من التوضيحات تسمح بالحصول على صورة إجمالية عن هذا الموضوع، رغم معرفتنا بما لهذا العرض من صفة تبسيطية: أولاً، تحليل مختلف العناصر التي تشكل جزءاً من النمو (الاستخدام اليدوي، المشي، النظر، السمع، الشم، تطور العلاقات الاجتماعية، والحس الأخلاقي، الخ..)، ثانياً، مساهمة كبار علماء النفس والتحليل النفسي للطفل، وأخيراً عرض تسلسلي للمكتسبات شهراً تلو شهر وسنة تلو سنة.

والحقيقة أن عدم الفصل إطلاقاً بين كل عناصر نمو الطفل سواء كانت حركية أو حسية أو نفسية أو عاطفية هو أمر بديهي، كما أن العلاقات المتبادلة بين هذه القطاعات هي شديدة اللحمة.

الفصـل الأول

النمو النفسي ـ الحركي عند الطفل

إن النمو خلال السنوات الست الأولى لهام جداً. فدماغ الطفل ما بين الولادة والسنة السادسة ينمو أكثر من أية فترة من حياته. فعند السنة السادسة يصل الدماغ إلى 90% من وزنه النهائي بينما يزيد الوزن الكلي للجسم ثلاث أو أربعة مرات قبل سن البلوغ.

تأخذ السنوات الأولى من الحياة أهمية كبرى: فيتم خلالها وبشكل سريع النمو العقلي والعاطفي ونمو العلاقات الاجتماعية وبقدر ما يستند التفتح على العالم إلى خصائص البيئة المحيطة فهو يستند أيضاً إلى التقدم في النضج العصبي ـ الحركي والحسي. ففي عمر السنتين تكون أسس شخصية الطفل قد اكتملت.

إن الطفل الذي يبدأ بالمشي بعمر السنة وينطق بأولى كلماته في هذه السن وبأول جملة بين السنة والنصف والسنتين ويصبح نظيفاً في الشهر الخامس عشر أو الثامن عشر من عمره سوف يمر بنمو عقلي طبيعي إذا لم يقع له أي حادث (هوبير).

I ـــ الحياة داخل الرحم

عندما سمعت إليصابات سلام مريم وهي تلقي عليها التحية، ارتكض الجنين في بطنها وامتلأت إليصابات من الروح القدس... وقالت... فإنه عندما بلغ سلامك إلى أذنيّ، ارتكض الجنين من الابتهاج في بطني!. (إنجيل لوقا I: 41 ـ 44).

إن أحاسيس الجنين قد أتى على ذكرها الإنجيل نفسه، ثم طمست فيما بعد

لعدة قرون. ولم يعد اكتشاف روعة وغنى الحياة «قبل الولادة» إلاّ مؤخراً. فالفيلم الشهير الذي قدمه كلود إدلمان عن «الأيام الأولى للحياة» يدل على ما هي عليه الحياة داخل الرحم، كما يدلنا على ذلك «الأطلس بالألوان للحياة قبل الولادة» لـ م. إنغلند[1]، وكذلك الصور الرائعة لنيلسون[2].

إن التفتح النفسي ـ الحركي للطفل يبدأ قبل الولادة بكثير. فالجنين في بطن أمه يرى ويسمع ويشعر ويتذوق ويتحرك ويمص إبهامه، الخ.. فارتكاسات المص والإثارة الفمية (والآليات الشفهية) تظهر عند الجنين في الأسبوع الثامن. والابتلاع يبدأ في الأسبوع العاشر. والمص يصبح قوياً في الأسبوع الثاني عشر. ويسمع الجنين الأصوات منذ الشهر السادس ولا يتوقف عن تحريك رأسه وجذعه وأطرافه. وفي الشهر الخامس يبتسم ويظهر إيماءات وتكشيرات. وهو يبتلع السائل الرحمي الضروري لنموه لأنه يحتوي على الأملاح المعدنية والحوامض الأمينية والخمائر (أنزيمات) والفيتامينات والعناصر الضرورية للحياة. إنه يحرك لسانه منذ الأسبوع الثاني عشر. ويقوم ببعض حركات التنفس «التمرينية» منذ الأسبوع الثامن عشر. وابتداءً من الشهر السادس ينام الجنين ويحلم حتى ولو لم يتوافق بالضرورة نومه مع نوم الأم. إن تخطيط الدماغ يبرهن أن الجنين يمر بحالات من النوم المستهجن حيث يلاحظ خلالها حركات صغيرة وسريعة للعين تفسر عند الإنسان البالغ على أنه في حالة حلم. يعتبر ف. دومين W. Dument، أن الجنين يمضي معظم وقته في الأحلام. إن علم اللمسيات يسمح بالاتصال بالجنين بواسطة اللمس.

إن الولادة تبدو إذن كحلقة من الحياة التي بدأت فيما قبل على كل المستويات الحسية.

فهل يمكننا القول إن الجنين هو «شخص» كما يؤكد ذلك بعض المؤلفين الذين يمكن اعتبارهم شديدي الخيال، أم علينا القبول مع التساهل باقتراح يقع في منظور «الوهم البناء»: وهو إعطاء الآخر نوايا وخصائص ليست لديه فعلياً، ولكنها

---

(1) Moloine, 1984.

(2) L. Hamberger, L. Nilsson, Naitre, Hachette, 1990.

تسهل إقامة علاقة معه وتؤدي إلى خلق حقيقة قريبة من هذا الوهم البدائي[1]؟ فعلى كل قارىء أو كل أم أو أب أن يجيب عن هذا السؤال.

II ــ العلاقات العاطفية عند المولود الجديد واتصالاته الأولى

إن الدراسات الأولى حول تفاعلات وتصرفات الأطفال الاجتماعية تعود إلى السبعينات. فعلى جميع الأمهات أن يدركن أن الطفل ليس كائناً خاملاً، غير قادر على فهم أمه والتفاعل مع اهتماماتها بل بالعكس إنه قادر على تنظيم تجاربه فهو «كفؤ»[2]. فالجنين ومن ثم المولود الجديد والرضيع لا يعرب فقط عن أحاسيس ويحتفظ «بذكراها» بل تنشأ بصورة مبكرة علاقة تفاعل بين الطفل وأمه. ويعتبر برازلتون أن «الطفل ينجز نصف الدرب على الأقل باتجاه أبيه وأمه». وكما يقول مونتانيه هناك شوط كرة طائرة حقيقي يدور بين الطفل وأمه (أو أبيه). فمنذ الأيام الأولى من حياة المولود الجديد نجده قادراً على التفاعل والتحدث مع أمه وأبيه. إن حواسه الخمس تسمح له ببروز مجموعة كاملة من الأحاسيس وباستعمال بنى اتصالية مختلفة. فالأطفال هم كائنات اجتماعية منذ الأيام الأولى لحياتهم، وعلاقاتهم الاجتماعية والعاطفية تحتل مكاناً أساسياً في أطوار نموهم الأولى. والمولود الجديد يعبر منذ ولادته عن «حالة وعي» ويظهر ردات فعل خاصة. إن مجموعة الميول الفطرية هذه تشكل «المزاج» الخاص بالمولود الجديد: فبعض الأطفال يبكون كثيراً ويهيجون، والبعض الآخر على العكس، هم أكثر هدوءاً ويظلون صامتين وينظرون بعيونهم المفتوحة.

ركّزت بعض الدراسات الحديثة على تزايد تعلق الأم بطفلها (بولبي Bowlby). ففي عام 1970 برهن روبسون وموس أن الأيام الأولى من الحياة تتميز

---

(1) G. Delaisi de Parseval, J. Bigeargeal, Objectif bébé: une nouvelle science: la bébologie, le Seuil, 1987.

(2) إن تعبير «كفاءة» الذي هو ذو أصل أنكلو ـ ساكسوني حلّ نهائياً مكان تعبيرين هما «القدرة» أو «الأهلية» الموجودة في الكتب المخصصة لعلم نفس الطفل.

عند الأم بجو من الغموض في النفس وبحياد عاطفي غير واضح حيث سيبرز شيئاً فشيئاً الشعور بالتعلق ويتوضح من خلال التقاء «العين بالعين». عند الولادة لا تظهر غريزة الأمومة في الحال. فقد أظهرت إيرين ليزين هي أيضاً أنه بعد الولادة تكون الأم متعبة وينصب اهتمامها الأساسي في الأيام الأولى على كمال الطفل الجسدي، ويريحها الشعور بأن طفلها هو بين أيدٍ معتنية أمينة. وفي اليوم الرابع من حياة المولود الجديد تبدأ الأم بشخصنة علاقتها مع الطفل وهذا الشيء يترافق مع تغيرات في معاملته ولمسه وفي التعليقات الشفهية. وقد برهن مؤلفون آخرون كيف أن مواقف الأمومة توجه نمو شخصية الطفل من خلال إواليات تفاعل خاصة بهما. وتتحدد هذه الإواليات على أساس قدرة الأمهات على الاستجابة لحاجات الطفل بمرونة وثقة أو على العكس بتصلب.

كما أثبتت إيرين ليزين أن الطفل والأم يتوافق أحدهما مع الآخر تدريجياً.

إن التفاعلات المتبادلة بين الأم والطفل تتوقف على الممارسات المؤسسية المحيطة بالولادة من بين أمور عديدة. ففي الولادات التقليدية لا تسمح ظروف استقبال المولود للأم والطفل بإمكانية التصرف بحرية. فالممارسات التقنية المحيطة بالولادة لا تشجع الأم والطفل على الاتصال والتفاعل. بالطبع هذه الأساليب ضرورية في حالة أوجاع الولادة الجديدة ولكن الكثير منها يطبق بشكل روتيني ويعيق إقامة علاقات جيدة بينهما.

إن المولود الجديد يرى ويسمع ويبدي انفعالات. فهو ليس كتلة لحم وليس إنساناً بالغاً مصغراً، إنه كائن إنساني حديث الولادة... إن الاتصالات السابقة للتعبير الشفهي ظلت مجهولة لفترة طويلة ولكنها تشكل شرطاً أساسياً لكل أشكال التعلم عند الطفل. فالطفل يخلق لنفسه صورة عن الحقيقة من خلال حركات يومية صغيرة: كالطريقة التي تحمله بها أمه بين يديها، أو تبدل حفاظه، أو تغسله، أو ترضعه من الثدي، أو من الرضاعة. إنه يستند إلى مختلف حالات النفس هذه ليبني خبراته. فالأم لديها عدة طرق في تهدئة الطفل عندما يبكي ولكن جميعها يصدر عن الاندفاع الحياتي نفسه الذي يدركه الطفل كما هو تماماً. فهو سرعان ما يصبح قادراً على إقامة رابط بين التعابير الحسية المختلفة هذه مما يسمح له بخلق صورة

عن الأم المطمئنة. تعتمد الأم خلال الشهرين الأولين تصرفات مختلفة أثناء اعتنائها بطفلها هي ردّ على تصرفات الطفل وهي بدورها تتلقى رداً عليها عبر تصرفات جديدة. إن تكرار هذه الأعمال يسمح للطفل بتكوين ترسيمات لعلاقته مع الآخر وتوقع كيف سيكون تصرفه معه. وهكذا تقوم بين الأم والطفل اتصالات سابقة للتعبير الشفهي، تساعد الشحنة العاطفية فيها على تعلم الطفل. أثناء هذه المرحلة يستطيع ذهن المولود الجديد جمع واستيعاب المعطيات المختلفة وإدراك المميزات المؤقتة لحدث ما؛ فهو قادر على التعرف إلى المظاهر العاطفية (غضب ـ فرح ـ حزن) عند الأم كما عند الأب.

ورغم أننا لا ننكر ما يحدث بصورة خاصة جداً بين الطفل والأم أثناء الحمل والولادة إلاّ أنه يجب ألاّ نستنتج أن الارتباط لا يتم إلاّ مع الأم البيولوجية. فقد برهن الباحثون في مختبر علم نفس الطفل (باريس X ـ نانتير) أن الرضع الذين يترعرعون في أسر يساهم فيها الأب بقدر الأم أو أكثر في الاعتناء المبكر بهم يظهرون دلائل ارتباط وتعلق مشابهة لتلك التي تحدث عادة مع الأم. على أية حال يمكن أن تشمل هذه الملاحظات كل شخص يقدم للطفل الرعاية والعطف الذي يطلبه. فالطفل منذ ولادته مجهز ومبرمج من أجل التبادل مع الآخر شرط أن يكون الإنسان البالغ الذي هو في مواجهته قادراً على تلقي الإشارات الذكية التي يصدرها الطفل وأن يستجيب لها بصورة فعّالة. وبشكل عام يستخدم البالغون جدول رموز الاتصالات الأكثر تناسباً مع الرضيع: فيتم تضخيم الإيماءات التي تعكس إيماءات الطفل، فيرتفع الصوت والعيون تطيل النظرة...

إن طفل الثلاثة أو الأربعة أسابيع يصغي إلى أمه بإعجاب. فينظر إليها بثبات ويفتح ويطبق فمه ويبدي اهتماماً بالحديث. فيثرثر ويثغو عندما يسمع أمه تتكلم أو تغني. وعندما يبلغ الستة أسابيع يبدأ بالابتسام عندما تهتم أمه به. وهذه البسمة الحقيقية تتضاعف بنظرة قوية وبتنغيم. فهي تختلف بالتالي تماماً عن «الابتسام للملائكة» والذي هو في الحقيقة ليس سوى ارتكاس تحدثه دوافع داخلية. فقد لاحظت سان ـ آن داركاسييس Saint - Anne Dargassies أن نصف الأطفال الطبيعيين المولودين في أوانهم يستجيبون للاستثارات بابتسامات وذلك بين عمر

شهر وشهرين. يسمح الوصف المقدم عن هذا الموضوع من التمييز بين هذه البسمة المرافقة بنظرة ثاقبة عن الابتسام للطعام أو الابتسام للملائكة الذي يحدث معظم الأحيان والعينان مغمضتان. فالطفل الأعمى يبتسم عندما يحين الوقت الطبيعي لذلك، وهذه البسمة تسببها الأصوات والاحتكاك الجسدي أو الإحساس بتنفس الأم. فابتسامات الطفل تنقل مجموعة كاملة من الانفعالات بدءاً من السعادة وصولاً إلى الانتظار المقلق؛ أو من التحية إلى الشكر، الخ.. في هذه المرحلة تتغير تصرفات الأم بدورها وذلك بتكيفها مع إدراكها الخاص الذي يتكون عندها عن طفلها: فتكتسب اللغة نبرة حادة وتصبح أكثر بطئاً، وإيماءات الوجه تتنوع بتعابير أكثر ثباتاً. وبالمقابل يغير الولد كذلك تصرفه: فتنفسه، وحركات رأسه، واتجاه نظرته كلها تتغير.

إن لغة الأطفال التي يسميها عالم النفس الإنكليزي دافيد لويس (D. Lewis)[1]، «اللغة السرية» هي جدول حقيقي من المواقف والتعابير على الأم أن تتعلم كيف تفك رموزه.

إن هذه اللغة الصامتة تتوجه إلى العيون وليس إلى الآذان. إن الاتصال غير الشفهي لدى الطفل هو من الكمال والرهافة ما يجعله قادراً على التعبير عن أدق معاني المشاعر. ولكي يسود نمط من التفاعلات المنسجمة والمتوافقة مع متطلبات الطفل الحقيقية يجب على الأهل أن يدركوها ويستجيبوا لها بطريقة مناسبة وهذا ما يدعوه جوليان كوهان ـ سولال «التطابق». وهذا ليس بالأمر السهل![2].

يجب ألاّ ننسى أنه في قائمة قدرات الاتصال لدى المولود الجديد هناك معرفة الآخرين وهي ظاهرة تعيدنا إلى «توارد الخواطر» المعروف والذي تهتم به العلوم الخيالية المستقبلية. فبالنسبة إلى الأم معرفة الآخر («الإحساس مع») هي

---

(1) D. Lewis, Le langage secret de notre enfant, Belfond.

(2) عندما يقوم هذا «التطابق» بشكل سيء تنتج عنه اضطرابات يدعوها كرامر Cremer «اختلال النغم في التفاعل». إن الاكتشاف المبكر لها يمنع قيام تشوّهات في تطور الطبع والمزاج الذي يلي العلاقات العاطفية ذات النوعية السيئة. لقد أشار إلى ذلك فرويد حين قال: «كل شيء مسموح وكل شيء مفتوح أمام الذي أحبته أمه كثيراً».

القدرة على التماهي مع طفلها والفهم «من الداخل» لحاجاته ومشاعره. إن هذا النوع من التراجع الزمني يضع الطفل والبالغ على المستوى العاطفي نفسه. وعلى العكس، فإن المولود الجديد هو شديد الحساسية تجاه كل الإشارات الجسدية لدى الأهل (النبرة، الإيماء، التوتر العضلي، الخ..). فالطفل يدرك تماماً الحالة العاطفية في محيطه وقد تسبب التوترات التي يشعر بها(1) اضطراباً عميقاً.

إن الطفل في شهره الثاني يزقزق فرحاً عندما نحادثه. ويبتسم لكل من يهتم به حتى ولو كان هذا الشخص يلبس قناعاً. إنه يفتح يديه وتتوجه نظرته وزقزقاته وابتسامته أكثر فأكثر إلى الآخر ثم تتحول إلى حوار. فالطفل يعرف معنى إيماءات أمه التي بتواصلها معه تساعده على اكتشاف نفسه. وهو في عمر عشرة أسابيع يتبع بنظراته الأشخاص الذين يتحركون من حوله. وفي سن 12 أسبوعاً (ثلاثة أشهر) يرفض البقاء وحده في غرفته ويفضل البقاء حيث يوجد حياة: المطبخ أو الصالون، الخ. والألعاب الملونة تثير لديه اهتماماً شديداً، ويدير رأسه عندما يرى القطّارة التي تحوي السائل الفيزيولوجي المخصص لتنظيف أنفه.. وعندما يبلغ ستة عشر أسبوعاً، يفتح فمه لدى رؤية الرضاعة أو الثدي. ويبتسم في عمر العشرين أسبوعاً لصورته في المرآة، وعندما يفلت منه شيء ما كان يلعب به يبحث عنه متلفتاً. في عمر الستة أشهر عندما يكون الطفل نائماً على ظهره يمد يديه نحو أمه لأنه يعلم أنها ستساعده على الجلوس. كما يحاول أن يمسك الغرض الذي وقع منه. وفي حوالي الخمسة أشهر يقلد الطفل الإنسان البالغ الذي يمدّ له لسانه. أما زازو (Zazzo) فقد برهن أن هذه المقدرة موجودة منذ الولادة. ويعرف الطفل في عمر حوالي الستة أشهر الأطعمة التي يحبها وتلك التي يجدها غير شهية... كما يحاول أن يلفت انتباه البالغين محاولاً السعال أو محدثاً صوتاً ما. ويحبّ أن يلعب «الغميضة» بوضع قطعة قماش على رأسه أو رأس أمه. ويجيب عندما نناديه باسمه. ويحاول أن يلمس صورته عندما يكون أمام المرآة.

ويكتشف الطفل بين سبعة وتسعة أشهر أنه يملك عقلاً وأن الآخرين لديهم عقل هم أيضاً. ويلاحظ أن الأفكار يمكن أن نتشارك فيها. وفي عمر الثمانية أشهر

---

(1) J. Salomé, Papa, Maman, écoutez - moi vraiment, Pour comprendre les différents langages de l'enfant, A. Michel, 1989.

يدفع جانباً يد أمه التي تحاول أن تغسل له أذنيه أو أنفه. وفي سن العشرة أشهر يصفق بيديه ليقول «برافو» ويقوم بحركة «الوداع» ويرسل قبلة، ويدل بسبابته ويومىء «بالشكر». وإذا لاحظ أن إحدى حركاته تثير الضحك فهو يعيدها بصورة عفوية. ويحب أن يرمي بالأشياء أرضاً كي نقوم بلمّها. ويساعد في ارتداء ثيابه فيرفع يده أو رجله، ولدى دراسة قدرته على التركيز أثناء اللعب يمكن أن نكوّن فكرة عن قدرة ذكائه في المستقبل (Illinogworth). في سن الأحد عشر شهراً يقدم لأمه لعبته ولكنه يرفض أن يتركها لها. ويفهم بعض الكلمات «كالرجلين» و «الحذاء» و «الجوارب» الخ... كما يضحك إذا قامت أمه ببعض التكشيرات أو وضعت شيئاً غريباً على رأسها. ويستطيع أن ينطق بثلاث أو أربع كلمات ولكنه يفهم أكثر منها بكثير. وفي عمر السنة يحاول أن يمر خلف المرآة ليرى الطفل الذي يختبىء وراءها... ولا يدرك أن هذه هي صورته في المرآة إلاّ في عمر السنة والنصف. وفي هذه السن يتعرف إلى نفسه في الصور.

III ـ تطور العاطفة[1] والشخصية

إن مرحلة الطفولة الأولى التي تمتد من الولادة حتى السنة الثالثة هي الفترة التي تحدد تطور الشخصية اللاحق. فخلال السنة الأولى من حياة الطفل يقيم علاقاته الأولى «الغيرية» أي العلاقات التي توحده بكونه ذاتاً مع كل ما ليس هو.

لقد قدم سبيتز وصفاً لمرحلتين. مرحلة ما قبل الغيرية (من الولادة حتى نهاية الشهر الثاني) وتتجسد بالتوحد الكامل الذي يعيشه الرضيع مع أمه. فهي، أي الأم، كموضوع لم تأخذ بعد فرديتها؛ لذلك تسمى المرحلة «بما قبل الغيرية»، إذ إنها تُعاش على اعتبارها وظيفة: فهي الأم المغذِّية. ومرحلة الغيرية التي تبدأ حوالي الشهر الثالث وتعود إلى مرحلة تمييز الموضوع الأمومي. فالأم تمثل بالنسبة إلى الطفل أول «موضوع» فهي ترمز إذن للعالم الخارجي. فالرضيع يبدأ بالابتسام عندما يرى وجه أمه. كما أنه يبدأ بإدراك كل مظهر حيّ بين الشهرين السادس

(1) A. Baudier, Le développement affectif et social du jeune enfant, une introduction, Nathan, 1990.

والثامن، بالنسبة إلى بياجيه إن إدراكه «للحركة» هي أولى دلائله. وخلال هذه المرحلة يكون نشاط الطفل لعبياً (نشاط لعب). أما على المستوى النفسي فتصنّف المرحلة ما بين الولادة والثلاث سنوات بكونها ما قبل العضوية. فهي تتضمن مرحلة فمية تمتد حتى نهاية السنة الأولى ثم مرحلة شرجية وإحليلية تعبر عن انتقال النطاق الجنسي. فتصبح الثقوب السفلى بدورها مصدراً للذة كما أن السيطرة على العضلات الصارة التي يفرضها الأهل تقوي نوعية هذه اللذة.

إن التنظيم المعقد لهذه المراحل يؤدي تدريجاً في نهاية الطفولة الأولى إلى تمييز «الأنا» الذي يختلف عن العالم المحيط. فيتعرف الطفل حوالي عمر السنة والنصف إلى وجهه أمام المرآة: وهذه بداية وعي الذات. بين السنتين والثلاث سنوات يكتشف الطفل أن أمه ليست ملكاً خاصاً له بل تشكل مع الأب زوجين: وهذا هو سن «عقدة أوديب».

مرحلة الطفولة الثانية (من 3 إلى 6 سنوات) تؤدي إلى اكتشاف الحقيقة الخارجية ويترجم تمييز «الأنا» في حوالي السنة الثالثة بأزمة استقلالية. فالولد يقوم بعكس ما يطلب منه ويثور عندما نعاكس رأيه، ويريد أن يلبس ويأكل بمفرده. إن أزمة الثلاث سنوات ومشاكلها تشكل أحد الموضوعات المفضلة من قبل اختصاصيي الطفولة. إن الطفل هنا يعي فرديته.

IV ـ تطور التحرك

يصل الرضيع والطفل الصغير، عبر مراحل غالباً ما تكون متشابكة، إلى مختلف عمليات نمو العضلات والتحرك: وضعية الجلوس، استلقاء بطني، وضعية الوقوف ثم المشي.

1 ـ وضعيـة الجلـوس

إن انشداد الطفل المستلقي على ظهره نحو وضعية الجلوس يسمح بتحديد قدرته على السيطرة على رأسه. فالمولود الجديد يتدلى رأسه نحو الخلف وعندما يكون جالساً يتقوس ظهره ويتدلى رأسه إلى الأمام. أما في الأسبوع السادس فهو

يرفع رأسه عند انتهاء حركة الشد. وفي الأسبوع الثاني عشر لا يتدلى رأسه تقريباً أبداً. وفي الشهر الرابع يبدي انحرافاً بسيطاً للرأس في بداية الحركة ويحافظ على وضعية مستقيمة للرأس عندما يجلس وينظر حواليه باهتمام.

وفي الشهر الخامس يسيطر كلياً على رأسه. وفي الشهر السادس يرفع رأسه عن مستوى السرير ويمد ذراعيه للشخص الذي سوف يساعده على الجلوس. ويبقى الطفل جالساً عدة ثوانٍ مع انحناء لجذعه نحو الأمام وبتوازن باستناده إلى يديه اللتين يضعهما أمامه. وفي شهره الثامن يستطيع الطفل أن يبقى جالساً دون أن يستند إلى شيء لبضع ثوان. وفي الشهر التاسع يبقى جالساً بدون استناد عشرة دقائق.

وفي الشهر العاشر ينتقل بمفرده من الاستلقاء الظهري إلى وضعية الجلوس ويمكنه الاستلقاء على بطنه والجلوس من جديد. وفي سن 48 أسبوعاً يمكنه أن يتلفت وهو جالس ليلم شيئاً ما دون أن يفقد توازنه. وفي الشهر الخامس عشر يستطيع أن يجلس وحده على كرسي بالصعود إليها مواجهة والتسلق عليها وقوفاً ثم الدوران وأخيراً الجلوس. وحوالي عمر 18 ـ 20 شهراً يصبح قادراً على الجلوس كالإنسان البالغ.

2 ــ الاستلقاء البطني (على البطن)

عندما يتدلى الطفل نحو الأسفل (يحمله الأهل بوضع اليدين تحت البطن) يستطيع في الشهر الأول من عمره أن يرفع رأسه للحظات. وحوالى الستة أسابيع يستطيع أن يبقي رأسه على مستوى جسده لعدة ثوانٍ. وفي الأسبوع العاشر يرفع رأسه فوق مستوى جسمه. فالتدلي باتجاه البطن هو الرائز الأكثر دقة لمعرفة سيطرة الولد على رأسه وذلك خلال الأشهر الثلاثة الأولى.

فعندما يكون المولود الجديد مستلقياً على بطنه عند الولادة فهو يرفع حوضه ويقرب ركبتيه نحو بطنه. وحوالى الأربعة أسابيع يرفع ذقنه عن مستوى السرير للحظات. وفي الأسبوع الثاني عشر يرفع ذقنه وكتفيه مستنداً إلى ساعديه ومادّاً ساقيه بالكامل. وفي الأسبوع السادس عشر يقوس غالباً ظهره محملاً ثقل جسمه على بطنه والجزء الأسفل من صدره، بفصل ذراعيه وساقيه عن مستوى السرير.

وفي الأسبوع الرابع والعشرين يرفع الطفل الجزء الأعلى من جسمه مستنداً إلى يديه وبذراعين مفتوحتين. يستطيع أن ينقلب من الاستلقاء على البطن إلى الاستلقاء على الظهر قبل شهر من استطاعته التقلُّب من الظهر إلى البطن.

وفي الأسبوع الثامن والعشرين يستند بثقله على يد واحدة مفتشاً بنظره عن لعبته. بين الأسابيع الثلاثين والأربعين، يبذل جهداً كي يزحف ولكنه يتحرك غالباً متقهقراً. أما عند بلوغه الأربعين أسبوعاً فيتقدم باستخدامه يديه في الشد. في الأسبوع الرابع والأربعين يزحف مبعداً بطنه عن الأرض. وفي عمر السنة يمشي على الأربعة كالدب الصغير.

3 ـــ وضعيـــة الوقـــوف

إن الرضيع الذي نمسكه بوضعية الوقوف في الأسابيع الأولى من عمره يكوّر ظهره ويتدلى رأسه إلى الأمام.

في الأسبوع الثاني عشر يرفع رأسه ويسيطر عليه جيداً. وفي الأسبوع العشرين، يستند قليلاً إلى ساقيه. وفي الأسبوع الثلاثين، يمد ساقيه كلياً ويقفز فرحاً (إذا لم تمنعه الأم من ذلك خوفاً على ساقيه من التقوس. . . !).

وفي الشهر السابع يقف بين قطعتي أثاث إذا ساعدناه. وفي الأسبوع الأربعين يتعلق بقطع الأثاث كي يتمكن من الوقوف ويدفع بمؤخرته نحو الخلف. وفي الأسبوع الثامن والأربعين يسير جانبياً متمسكاً بالاثاث ويستطيع السير إذا أمسكنا بيديه. ولدى بلوغه السنة يمشي ممسكين به بيد واحدة.

ومن ثم من الممكن ألاَّ يحدث أي تقدم طيلة أربعة أو ستة أشهر، فالمشي بدون استناد يحصل بالمتوسط حوالي الشهر الثالث عشر (10 إلى 16 شهر). هناك 3% من الأطفال يمشون وحدهم في شهرهم التاسع. ويعتبر عدم المشي باستقلالية عند بلوغ الشهر التاسع عشر أو العشرين أمر غير طبيعي.

4 ـــ المشـــي

يمكن تعريف المشي على أنه حركة الانتقال نحو هدف ما على المستوى الخلفي بواسطة ارتكاز متتالٍ على رجل واحدة ثم على الاثنتين. أثناء المشي يكون

الشخص في وضعية عدم توازن شبه دائم بالمعنى الميكانيكي للكلمة، يبلغ عدم التوازن هذا أقصاه في نهاية مرحلة الارتكاز إلى رجل واحدة. عند الشهر العاشر لم يكن الطفل قد قام أبداً بتجربة الوقوف على رجل واحدة، بينما تشكل هذه الوضعية في سير البالغين 80% من مدة الخطوة الواحدة. فعلى الطفل إذن أن يكتشف هذه الميزة الأساسية في المشي كي يتمكن من السيطرة عليها واكتساب مشي سهل وثابت. ففي البداية يمشي الطفل برفعه عالياً جداً ساقيه، وقيامه بخطوات غير متساوية وباتجاهات مختلفة. ويحافظ على كوعيه منحنيين وساعديه مبتعدين عن جسمه. وفي الشهر الخامس عشر ليس بإمكانه أن يرمي الطابة دون أن يقع. وبين السادس عشر والثامن عشر يمكنه أن يصعد درجاً بوضعه رجلاً بعد الأخرى على كل درجة ممسكاً بحافة السلم. وفي الشهر الواحد والعشرين يلتقط غرضاً دون أن يفقد التوازن. وفي عمر السنتين يصعد الطفل وينزل درجاً وحده بوضع رجليه الاثنتين على كل درجة؛ ويمكنه أن يرفس الكرة دون أن يقع. وفي عمر السنتين والنصف يمكنه المشي على رؤوس أصابعه والقفز ولكنه لا يستطيع الوقوف على رجل واحدة. وفي عمر ثلاث سنوات يصعد الدرج بوضع رجل واحدة على كل درجة ولكنه يظل ينزل واضعاً رجليه الاثنتين على كل درجة.

V ـــ المهارة اليدوية

إن الارتكاس البدائي (ردة الفعل) بالإمساك والتعلّق (grasping) تختفي في حوالي عمر الثلاث سنوات. في الأسبوع الثاني عشر يحتفظ الرضيع للحظات بالخشخيشة التي وضعناها في يده. وإذا وضعنا أمامه غرضاً متعدد الألوان فهو يعبر عن رغبته بأخذه بحركات سريعة بيديه وساقيه وبتنفّس سريع.

ومن ثم وبالتدريج يمد ذراعيه نحو الغرض. في البداية لا يقدِّر الطفل المسافات ويهدف إلى الوصول إلى غرض ليس بمتناوله أو يتجاوز إمكانيته. وبين الأسبوع الثاني عشر والسادس عشر يراقب يديه عندما يكون مستلقياً على ظهره. وفي الأسبوع السادس عشر يضم يديه ليلعب بهما. ويجذب ثيابه نحو وجهه. وفي عمر العشرين أسبوعاً يمسك الطفل الغرض بأصابعه الأربع الأخيرة بين الخنصر

وعضلة الأصبع الصغيرة ويمد ذراعه على شكل «ممشاط لاقط». ويحمل كل شيء إلى فمه. وعندما يكون مستلقياً على ظهره يمكنه الإمساك برجله واللعب بأصابعه. وفي الشهر السادس يلتقط الأشياء بين راحة يده وأصابعه الأربع. وفي عمر الأربعة والعشرين أسبوعاً يفلت المكعب الذي يمسكه إذا أريناه مكعباً آخر ولكن في سن السبعة أشهر يحتفظ به ويحاول الإمساك بالآخر كذلك. فلهذا يبدأ بنقل الغرض من يد إلى أخرى.

وفي الأسبوع السادس والثلاثين يقرِّب مكعبين أحدهما من الآخر وكأنه يريد المقارنة بينهما. ويمسك الغرض بين الحافة الجانبية للإبهام وآخر سُلامى السبابة ويبدأ الإبهام بأخذ دور فعال. وفي عمر التسعة والعشرة أشهر يبدأ الملقط المؤلف من الإبهام والسّبابة بالظهور. وبعد أن يتحرر الطفل من الارتكاس اللاإرادي للعضلات القابضة إذ كان في البدء يطبق يده فيصبح قادراً على فتح يده وقبضها بصورة إرادية، وعلى رمي الأغراض واستعادتها وإعطائها أو تلقيها.

وفي الأسبوع الثاني والأربعين يحب أن يرمي الأشياء أرضاً وأن يلتقطها أحدهم له. وفي الرابع والأربعين يقدم لأمه الغرض الذي يمسكه. وفي الأسبوع الثامن والأربعين يلعب لعبة الأخذ والعطاء. ويحب أن يضع غرضاً داخل غرض ويجد تسلية في وضع المكعبات في سلة ومن ثم في استعادتها. وفي الشهر الثالث عشر يستطيع أن يصنع برجاً من مكعبين. وفي عمر خمسة عشر إلى ثمانية عشر شهراً يستطيع أن يأكل بالملعقة وحده دون أن يوقع شيئاً. وفي عمر السنتين يستطيع لبس قفازه وجواربه وحذائه. ويقلب صفحات الكتاب صفحة صفحة. ويستطيع أن يبني برجاً من خمسة أو ستة مكعبات. ويمكنه أن يسحب مزلاجاً. ويبدأ بالرسم بالقلم. وفي عمر سنتين ونصف السنة، يمكنه أن يرتدي ويخلع بنطاله بمفرده. ويمكنه أن يدخل الخرز في الخيط ويضع الأزرار السهلة المنال في عراها. وفي السنة الثالثة يمكنه أن يرتدي ثيابه ويخلعها وحده وتكفي مساعدته في وضع الأزرار أو السحاب الخلفي. وهو يرسم ويمكنه قص الأوراق بواسطة المقص. ويظل الطفل يستخدم يده اليمنى أو اليسرى على السواء حتى عمر السنتين والنصف. فيما بعد يفضل معظم الأطفال اليمين فهم يصبحون يمينيين ويبقون كذلك. ويظل بعضهم بين عمر ثلاث وأربع سنوات عُسْراً، ثم تبدأ سيطرة الجانب الأيسر بالتغيُّر

فيصبحون يمينيين. ويبقى عدد قليل منهم عُسْراً. وفي سن الخامسة أو السادسة يصبح الولد قادراً على التمييز بين اليمين واليسار.

VI ـــ الـــرؤيـــة

برهن شارل داروين عام 1877 أن ابنه المولود حديثاً كان يتأثر برؤية شمعة مشتعلة أمامه، غير أن الأبحاث الأولى عن الرؤية عند المولودين حديثاً تعود إلى الخمسينات فقط. لقد اعتبر عالم النفس الأميركي روبير فانتز أن انبهار الأطفال بالأشياء الجديدة يمكن أخذه على أنه لغة صامتة.

والواقـع أن دراسة الرؤية عند المولوديـن حديثاً تشمـل مفهوميـن مختلفيـن:

ـــ فمن جهة هناك ما يدركه الطفل.

ـــ ومن جهة ثانية ما تعبر عنه «الرؤية» في بناء العلاقة عند المولود الجديد. إنها فكرة «الرؤية ـ الساحرة» عند آجور ياغيرا.

وفي عام 1983 تبين بواسطة التخطيط الصوتي أن الجنين يفتح عينيه داخل السائل الرحمي ابتداءً من الأسبوع السادس من الحياة داخل الرحم كما أن تعرض بطن الأم لضوء قوي ومتقطع يحدث عند الجنين تسارعاً في ضربات القلب واختلاج أطرافه. كما أن الجنين يرى بعد سبعة أشهر من الحمل. إن المولود الجديد قادر عند الولادة على تثبيت نظره. وارتكاسات الطبع الضوئي والتوافقي هي جاهزة لديه. ويمكنه أن يتبع بنظره شيئاً على مدى قوس من 90 درجة كما يرافق هذه الملاحقة البصرية دوران مقترن للرأس شرط أن يكون هذا المثير على مسافة مناسبة من حيث القرب وجذاباً من حيث مظاهر التباين الضوئي فيه وقوة الإنارة والحركة بشكل كاف.

بعد أن يتناول الرضيع طعامه ويشعر بالشبع يهدأ ويتنفس بانتظام فيفتح عينيه اللامعتين لفترة تزداد شيئاً فشيئاً. ولكن يوجد اختلافات هامة بين الأطفال. فبعضهم أكثر حدية وبعضهم الآخر أكثر فتوراً وأقل تركيزاً في الرؤية. فمن المحتمل أن يكون هناك إلى جانب عناصر خارجية (فترة الولادة، تناول الأدوية،

الخ. .) فرق في النضج العصبي قد يلعب دوراً إلى حد كبير.

أما فيما يتعلق بتكيف عدسة العين فإن الرضيع لا يغير في انحناء عدسة عينه وفق المسافة التي تظهر أنها ثابتة منذ الولادة على مسافة 18 ـ 20 سنتم. في عمر ثلاثة أشهر يصبح التكيُّف ممتازاً وأعلى من تكيُّف الإنسان البالغ. ففي عمر الأربعة أسابيع، يتبع الطفل بعينيه لعبة نُمرِّرها أمامه. وفي الأسبوع السادس يتبع بنظره الأشخاص الذين يتحركون في الغرفة. وفي الأسبوع الثامن يتبع شيئاً ينقل على انحناء يتعدى 90 درجة، وفي الأسبوع الثاني عشر يتبعه من جهة إلى أخرى. في عمر ثلاثة أو أربعة أشهر يتابع تنقل الأشياء بإدارة رأسه. وفي الشهر السادس يسعى لرؤية ما يهمه بتغيير جلسته. ولكن قبل عمر السنة لا يستطيع أن يتابع بنظره غرضاً يتنقل بسرعة.

إن المولود الجديد يرى الأشياء الشديدة التباين إذا لم تكن شديدة البعد. ويميز بين جهتين تختلف بينهما درجة الإضاءة 5% بينما يلاحظ الإنسان البالغ الاختلاف بدرجة 1 إلى 2%. ويميز الرضيع سطح الأشياء في سن 6 إلى 7 أسابيع، أما الفرق بين المقعّر والمحدّب فلا يلاحظه إلاّ في حوالي الأسبوع العاشر. . ابتداءً من الشهر الرابع يرى الرضيع الألوان مثل الإنسان الراشد.

لقد أكدت الدراسات الحديثة أن الرضع يفضلون النظر إلى الصور الجديدة. ويبدو أن الرضع الذين لديهم نمو عقلي متأخر لديهم في الأصل قدرات متدنية في التمييز البصري. لقد برهن پارميلي أن الرضع الذين لا يبدون أفضلية للصور الجديدة لديهم سوابق مرضية (تعقيدات توليد وما بعد الولادة) أكثر من الذين يبدون هذه الأفضلية.

بعد ستة أسابيع يميز الرضيع الأشياء بعضها عن بعض. ويبدأ بتنظيم الزمن بتذكر الماضي وتوقع المستقبل. فهو يمد جسمه إلى الأمام عندما تقترب أمه من السرير وذراعاها مفتوحتان لحمله. ويفتح فمه عندما يرى الرضاعة. فهو يحلل إذن المعلومة البصرية ويفهمها ويبدأ بالاستعداد للمرحلة التالية التي جرى الإعلان عنها. وهذا هو بالتحديد الوصل بين مختلف أنواع الإدراك.

نقل لنا مارشال هيث[1] التجربة التالية:

نضع أمام طفل بعمر ثلاثة أشهر مصباحين، واحداً إلى اليسار والثاني ناحية اليمين. نضيء مصباح اليمين خلال نصف ثانية ثم نطفئه، بعد نصف ثانية من الظلام نضيء مصباح اليسار ثم ظلام وهكذا دواليك. ونراقب بدقة شديدة نظرة الطفل. فنلاحظ في المرحلة الأولى أن الطفل لا ينظر إلاّ إلى المصباح المضاء ولكن بعد ثلاثين ثانية من هذا العرض المنتظم والمتعاقب يبدأ الطفل بالاستباق وينظر إلى المصباحين قبل أن يضاءا.

يهتم علماء النفس كثيراً بدراسة تمييز الرضيع للوجوه، إذا قدمنا للرضيع الصغير رسمين أحدهما يمثل وجهاً إنسانياً والآخر رسماً هندسياً، فنراه يركز فترة أطول على الوجه البشري. فهل هذا يعني أن الطفل يتعرف إلى الوجه؟ من الظاهر أن هذا غير صحيح. فالطفل حتى عمر شهرين ونصف تجذبه الصورة الأكثر تعقيداً (الغنية بالخطوط.. الخ) ففي الواقع أن الرسم أو الصورة الفوتوغرافية للوجه ليست سوى مجموعة من الخطوط والنقاط والمساحات الرمادية نوعاً ما. وهو يتعرف إلى معنى هذه النقاط والخطوط على أنها تمثل وجهاً في حدود الشهر السادس أو السابع من العمر. وبالطبع يتعرف الطفل إلى أمه قبل هذا السن من خلال مجموعة من المؤشرات التي تجمع بين طريقة حمله من سريره وإمساكه بين يديها والتكلم معه ونبرة صوتها، ورائحتها، وتعابير وجهها. وإذا أخذنا كلاًّ من هذه الخصائص على حدة فهي تظل إلى حد ما فعالة. فالرائحة وحدها كافية منذ بداية الأسبوع الثاني لذلك. والصوت غير كاف إلاّ بعد نهاية الشهر الأول من العمر ورؤية الوجه بحد ذاته تحتاج إلى وقت أطول. إن الربط بين الصوت والوجه لأشخاص مألوفين تمّ التأكيد عليه عند الأطفال في عمر ثلاثة أشهر من قبل العالم سْپِلك. يوضع أطفال بهذا العمر أمام أهلهم. وأثناء الاختبار يحافظ الأهل على وجه جامد ويمتنعون عن القيام بأية حركة والنبس بأية كلمة. ويقوم مكبِّر للصوت موضوع بين الأم والأب بإسماع صوت الأم أو صوت الأب. فيوجه الطفل نظره بدون تردد نحو أحد الوالدين الذي سمع صوته.

---

(1) Marshall Haith, Propos recueillis et traduits par Etienne Herbinet et Eliane Vurpillot, in L'aube des sens, Cahiers du nouveau - né, n°5, Paris, Stock, 1991.

والمولود الحديث قادر ليس فقط على الرؤية ولكن كذلك على التقليد. ظلت هذه القدرة مجهولة لفترة طويلة. إلاّ أن رينيه زازو لاحظ عام 1945 أن ابنه ذا الثلاثة أسابيع كان يقلده عندما يمد لسانه. وفي تلك المرحلة كان هذا الاكتشاف معارضاً لنظريات بياجيه وفالون وسبيتز. فقد رفض هؤلاء ملاحظات زازو مؤكدين أنه قبل سن الثلاثة أشهر لا تكون المسالك العصبية ناضجة بشكل كاف للسماح بهذا النوع من الممارسات. ظل زازو يعيد تجربة مد اللسان للمولودين حديثاً وتأكدت ملاحظاته في الولايات المتحدة عام 1971. وقد برهن مِلتزوف مؤخراً أن قدرات التقليد موجودة منذ الولادة. وأصغر طفل خضع لهذه التجربة بنجاح من قبل هذا الباحث كان عمره 45 دقيقة فقط..!.

هذه التجارب تتجه نحو تأكيد وجود مسبق لارتباطات بين مختلف أنماط الإدراك منذ الولادة إذ إن المولود الجديد يكرر نوعاً من الإيماء المعقد يراه لأول مرة.

إن التبادل العاطفي الأول بين الأم والمولود الجديد هو بصري فجميع الأهل يشعرون بهذا الانفعال الغريب بسبب التطلع إليهم من قبل المولود الجديد الذي وكأنه يأكلهم بعينيه. وفي الوقت نفسه تقريباً تركز الأم نظرها على عيني طفلها. فتنجذب النظرات بعضها نحو البعض مشبعة على السواء بالانفعال والتساؤلات.

VII ـ السمع

إن الجنين يسمع في الشهر السابع من وجوده في رحم أمه الأصوات والضجيج ويجيب على هذه المثيرات الصوتية الخارجية بحركات يقوم بها عندما تكون هذه المثيرات قوية فتطغى على ضجيج نبضات القلب والشرايين والجهاز الهضمي للأم. هذه الأحاسيس السمعية تنتقل في البدء عبر قنوات عظمية إذ إن قنوات السمع تكون مسدودة بالصماخ. ويظهر أن هذه الأصوات تبقى مسجلة في ذاكرة الطفل. فقد قامت نساء في الأشهر الستة الأخيرة من الحمل بقراءة قصة من قصص الأطفال بصوت عال وعدة مرات في اليوم. بعد الولادة، أظهر المستمعون الصغار تفضيلاً واضحاً لهذه القصة حتى ولو قرأتها قارئة أخرى غير أمهم. كما

جرت تجارب مشابهة استُخدمت فيها القراءات والأغاني والموسيقى المتنوعة. لقد أظهر جان فيجو تكيف الجنين مع الأصوات ابتداءً من الشهر الخامس من الحمل (لحن على الزمخر «المزمار» «بيار والذئب» ترمز إلى الجدّ، وتكون نوطتها بتردد صوتي أدنى من ألف هرتز). إن التجارب التي جرت بالإضافة إلى تأكيدها على السمع قبل الولادة تعطي المولود القادم إمكانات ذاكِرية فائقة. إن الجنين يبدأ بالنسبة إلى بعض الباحثين في تعلم الكلام منذ الشهر السابع من الحياة الرحمية.

إن المولود الحديث يكتشف منذ الولادة وجود أشياء رنّانة ويدير رأسه وعينيه باتجاهها وهو قادر على تمييزها. فهو حساس جداً تجاه الخصائص الإيقاعية واللحنية في الترانيم الموسيقية. وهو يتأثر بالأصوات الخفيضة أكثر من الأصوات الحادة.

إن المولودين حديثاً بالنسبة إلى دوكاسبير وفيفير عام (1980) يميزون وهم بعمر ثلاثة أيام صوت أمهم عن صوت نسائي لامرأة غريبة. والمولود الحديث بالنسبة إلى لجاك ميهلير يتعرف إلى صوت أمه في نهاية الشهر الأول، بالنسبة إلى وايت إن تمييز صوت الأم بين نساء أخريات لا يحصل إلاّ في حوالي الشهر الرابع، أو الشهر الخامس.

عندما نراقب الأطفال نجد أن معظمهم يسمعون إذا كانوا مستيقظين وهادئين لا يبكون ولا يرضعون. وهكذا نلاحظ أن عند أية ضجة يرمش الطفل الصغير بعينيه ويبكي ويقوم بارتكاس مورو فيوقف تنفسه ويمتنع عن الرضاعة الخ. . .

وإذا حرّكنا لعبة رنانة في الظلام فإن المولود الحديث يمدّ يده في الاتجاه الصحيح. يختفي هذا السلوك بعد عدة أشهر. ففي البداية يبدو أن البصر يتبع السمع إذ إن الطفل تجاه مثيرين أحدهما بصري والثاني سمعي يدير نظره نحو الأخير. حوالي عمر التسعة أشهر يحدث العكس فيتفوق النظر على السمع. إن الرضيع في عمر ثلاثة أو أربعة أشهر يدير رأسه نحو مصدر الصوت. وفي الأسبوع الثاني والثلاثين يجيب عندما نناديه باسمه. وفي الأسبوع السادس والثلاثين يقلد الأصوات التي تصدرها أمه. ويفهم الطفل في سن تسعة إلى اثني عشر شهراً معنى عدة كلمات.

من الناحية الطبية يمكن التأكد من سمع المولود الحديث في حال الشك بواسطة فحص آلات السمع. وإذا اقتضى الأمر يتم اللجوء إلى التخطيط الكهربائي للدماغ (EEG) والتخطيط الكهربائي للعضل (EMG)، أو التخطيط الكهربائي لحلزونيات الأذن.

VIII ــ تطور الذوق والشم

إن قدرات الشم والذوق في الاستكشاف والتمييز عند المولودين حديثاً مساوية لقدرات الإنسان البالغ.

إن جهاز الذوق (مناطق التذوق على اللسان) تتكون باكراً خلال الحياة داخل الرحم. ومنذ هذا العمر يفضل الطفل المذاق الحلو. فكلما كان السائل الرحمي حلواً ابتلع منه الجنين أكثر. فإذا كانت الأم تعاني داء السكريّ فإن المولود قد يصبح ضخماً بسبب شراهته وزيادة كمية السكر في الدم.

وعندما نخضع الرضيع لتجربة المذاقات الأساسية (الحلو ـ المالح ـ الحامض والمر) يعبر عن لذته أو غضبه بإيماءات لا تقبل الشك.

لقد أجرى عالم النفس والفيزيولوجي جاكوب ستاينر تجارب على آلاف الأطفال المولودين حديثاً وبرهن أن الإيماءات التي تعبّر عن اللذة أو الاشمئزاز والتي ترافق مختلف الأحاسيس تشكل جزءاً من الموروث والفطري. واختبار الذوق ـ الوجه (TGV) التي وضعها هذا العالم تطبق على الأطفال دون الست ساعات من العمر والذين لم يتناولوا بعد أية وجبة طعام. تبدأ التجربة بوضع نقطة ماء مغلية غير معدنية وبحرارة الجو المحيط. وهذا يسمح بتسجيل ردات الفعل على هذه الاستثارات. في المرحلة الثانية يعطى الطفل سائلاً حلواً. فيعبر عن رضاه بإيماءات معينة. التجربة الثالثة هي بعصير الحامض. فردة فعل الطفل تكون بقبض شفتيه. وفي الرابعة نستخدم سائلاً مراً. فيلصق الطفل لسانه بحلقه ويترك رأس لسانه خارجاً ومنظره يعبر عن حزن عميق. ولدى استخدام كحول دهنية تختلف من حيث عدد الجذور الكاربونية فيها ومن حيث درجة كثافتها تبين أن

العلاقات بين المتغيرات في هذه العوامل ودرجة استجابة الطفل الجديد هي نفسها عند البالغين (من حيث الفعل الحركي وحركة التنفس).

إن النباتات المدرّة للَّبن هي نباتات ينتقل طعمها إلى لبن الأم: كالكمون والشومر واليانسون الأخضر، الخ. فيصبح اللبن لذيذ الطعم ممّا يجعل الرضيع يمص الثدي بقوة أكبر والمص كما هو معروف هو الذي يحدث درّ اللبن.

لقد اتفق العديد من الباحثين على أن أذواق الرضيع اللاحقة لها علاقة بمذاق لبن الأم الذي هو نفسه يتعلق بالعادات الغذائية في الأسرة.

كان داروين أول عالم أعطى أهمية في عام 1877 لدور رائحة الثدي في العلاقات المتبادلة بين الأم والطفل. فقد شرح أن طفله في عمر الاثنين وثلاثين يوماً كان يدير وجهه نحو ثدي أمه من مسافة عشرة إلى ثلاثين سنتم وهذا يدل على قدرات الطفل في كشف الحرارة والروائح.

هذه التوقعات تأكدت منذ ذلك الحين بفضل تجارب عديدة منها ما يعود لمدرسة ت. إنجين و ل. ي. ليبست في الولايات المتحدة حول الخصائص الوظيفية لجهاز الشم عند الحديث الولادة. فقد برهن هؤلاء الباحثون مثلاً، أن حديثي الولادة وهم بعمر يومين عندما ينامون يستطيعون أن يستجيبوا لروائح مختلفة بردات فعل فيزيولوجية (تغير في حركة التنفس ونبض القلب) وسلوكية (تغير شامل في حركات الذراعين والساقين) مهما كانت المسافة بين مصدر الرائحة وأنف الطفل. لقد جرت ملاحظة أطفال مولودين حديثاً بأقل من اثني عشرة ساعة على ولادتهم فوضعت تحت أنوفهم مثيرات «محايدة» (ماء مقطر)، وروائح تعتبر «مرغّبة» (رائحة الڤانيليا، الموز، الشوكولا، العسل...) وروائح لا يطيقها الكبار (سمك فاسد، بيض معفن...) لقد أظهر تحليل الصور الفوتوغرافية التي أخذت تعابير للوجه تدل على القرف والرفض بالنسبة إلى الروائح المزعجة وردات فعل تدل على القبول والرضى عندما تكون الروائح زكية. أما روائح تعرُّق الجسم فيظهر أنها لا تزعج الأطفال على عكس معظم الكبار. وبما أن هذه التجارب تطبق قبل تناول الطفل لأي غذاء فالأثر العاطفي للروائح هو على ما يبدو فطري. لقد أثبت مؤخراً ماك فارلان أن طفلاً عمره عشرة أيام يتعرف إلى أمه من رائحتها خاصة

على مستوى العنق. كما برهن جاكو ستاينر أن قطعة قطن مغمسة بروح الموز تحدث عند الطفل إيماءة رضى بينما القطعة نفسها من القطن التي تفوح منها رائحة البيض العفن تحدث حالاً حركة قرف. لقد طلب بنوا شال وهوبير مونتانيه (ص 83) في بزنسون من مجموعة من الأمهات أن تضع حول العنق قطعة قطن خلال يوم كامل. فبعد أن تشرّب هذا القطن بالزهم والعرق، قدّم إلى رضع بعمر يومين. فهدأ الأطفال مباشرة وناموا نوماً عميقاً. أما النماذج الغريبة فليست لها هذه الخاصية. على العكس إن الأم تتعرّف سريعاً إلى رائحة طفلها. فإذا عصبنا لها عينيها فهي تتعرّف إلى رائحة ثياب طفلها الداخلية (صدريته) إن التعرف إلى رائحة أجسام الأهل قد يكون له تأثير مهدىء. لقد استخدم سيرولنيك الخصائص المهدئة لروائح الأمهات في معالجة صعوبات النوم عند بعض الأطفال. فاقترح على الأمهات أن تحملن محرمة على صدرهن خلال يومين ومن ثم علّمهن كيف يحولن نوم الطفل إلى «طقس» بحركات هادئة وتناغم بين اليد والفم والمحرمة المعطرة. وهكذا يتعلم الطفل النوم خلال ثلاثة إلى أربعة أيام.

IX ـ الحاجة إلى المص

بعد ستة عشر أسبوعاً من الحياة داخل الرحم يصبح الجنين قادراً على مص إبهامه. إن 80% من الأطفال الرضع يمصون إبهامهم. بعد سنتين يظل 40% منهم على هذه العادة و 10% منهم يستمرون في ذلك حتى عمر خمس سنوات. فمص الإبهام هو دليل على التطور السليم النفسي والحركي إذ إنه نتيجة النضج الطبيعي للطفل. فالآليات الفمية تظهر عند الجنين في أسبوعه الثامن (ارتكاسات المص والاستثارة الفمية). أما الابتلاع فيبدأ في الأسبوع العاشر. والمص يحصل في الأسبوع الثاني عشر. إن جميع هذه الإواليات تتعلق بجذع الدماغ ويمكننا القول إنه خلال الشهر الثاني أو الثالث من الحياة داخل الرحم يكون المصّ هو الدليل على النضج الفيزيولوجي للجنين.

إن الرضيع بحاجة إلى الرضاعة وإلى المص خارج الشعور بالجوع. ويظهر أن الرضعات في أوقات محددة ولمدة قصيرة لا تشبع حاجات الطفل للمص.

فبالنسبة إلى العالم ليڤي إن الرضع الذين يأكلون كل ساعتين يمصون أصابعهم أقل من الرضع الذين يتغذون كل أربع ساعات. فهذه الملاحظة تؤكد إذا كان لا بد من ذلك على أهمية المرحلة الفمية في النمو العاطفي للطفل. فالمولود الحديث والرضيع عندهما حاجات فطرية غرائزية للمص وليس فقط للأكل. فالجنين يمص أصبعه في بطن أمه. والمولود الجديد يجد بسرعة أصابعه ليبدأ بالمص. فالملاحظة اليومية تظهر بأن الأولاد يبكون ويضطربون ويديرون رأسهم بفم مفتوح ويلتهمون أي شيء (يدهم في الغالب. . . كرسي الطفل، الخ. .) فيهدأون. هذه الملاحظة تبرهن على أن المص - في الفراغ - هو حاجة. يعتبر ب. سپوك أن الحاجة إلى المص خلال الأشهر الستة الأولى من الحياة هي حاجة فيزيولوجية. وبعد هذا العمر لا تعود الحاجة إلى المص غريزية ولكن تمثل حاجة إلى الارتياح و «السلوى». ويمكن تشبيهها بحاجة الإنسان البالغ إلى تدخين سيكارة في حالة القلق. وقد لاحظ برازلتون أن المص هو أحد الموارد النادرة التي يستطيع أن يتصرف بها الطفل بطريقة مستقلة خلال السنة الثانية من عمره ليضع حداً لتوتر معين أو لحماية نفسه أو ليرتاح. وجيزيل يعتبر أن مص الإبهام هو صفة طبيعية للنمو. أما مارغريت ميد فقد أشارت إلى أنها لم تر أبداً طفلاً يمص أصبعه عند الشعوب البدائية حيث يعطى الثدي للطفل ما أن يبكي. وفي عام 1971 قارن كافيتز وبويم مص اليد عند المولودين حديثاً على أساس رائز آپغار. فلاحظا أن هذه العادة تبدأ متأخرة عند الرضع غير الطبيعيين، والمونغوليين 21 والمعاقين عقلياً وحركياً. فاستنتجوا أن المص له علاقة بنضج الجهاز العصبي المركزي. وبالنسبة إلى إلنغوورث حوالي نصف الأطفال الذين هم فوق عمر السنة يمصون أصابعهم. يصل هذا المص إلى أقصى درجة بين 18 و 21 شهراً وتقترن عند الطفل غالباً فكرة المص بفكرة النوم بحيث إنه ما أن يضع أصبعه في فمه حتى ينام. فيعتبر هذا المؤلف أن مص الإبهام أو الأصابع هو من صفات النمو. فالطفل عندما يكبر يجمع بينها وبين مشاعر القلق والسأم أو الرغبة في النوم.

X ـ الأجهزة الحسية الدهليزية والإحساس اللمسي
(الشعور بالألم، بالحرارة، بالبرد، بالضغط)

إن هذه الأجهزة تبدأ بالعمل منذ أن يكون الطفل جنيناً. فالمولود الجديد هو شديد الحساسية تجاه الاحتكاك والحرارة الإنسانية التي يبحث عنها والتي تشكل عنصراً أساسياً في النمو العاطفي وإقامة العلاقات الاجتماعية.

لقد أكد فالون على الدور الأول للنشاطات المتعلقة بوضع الجسم على المستوى المعرفي في علاقات الرضيع مع محيطه.

XI ـ الإحســـاس الجلـدي

يدل هذا الإحساس على الحرارة، والملمس، وطبيعة العالم الخارجي السمحاء أو المعادية، ويحول الطبيعة إلى شيء قابل للمس. إن حاسة اللمس تبدأ باكراً في الحياة الرحمية. لقد وضع ف. فيلدمان تعبير «أبتونوميا» ليحدد به تقنية تسمح بالاتصال بالجنين منذ الشهر الرابع وذلك بالقيام بالضغط على بطن الأم. وهذه الرسائل الجلدية هي المعلومات الأولى التي تنقل إلى دماغ الجنين.

فالمولود الجديد يكتشف الأشياء لمساً بواسطة الفم (شفاه، خدود، لسان) وليس باليدين. هذا «الإدراك ما بين الأنماط» هو مميز منذ الشهرين الأولين من الحياة. فإذا قدمنا لرضيع عمره شهر واحد مصاصة خشنة ومصاصة ناعمة دون أن يكون قد رآهما في السابق ومن ثم في مرحلة ثانية نعرض عليه هذين الشكلين من المصاصات فإنه سيوجه نظره نحو المصاصة التي تناولها في السابق. إن هذه القدرة على التعرف بواسطة البصر إلى شيء لم يعرفه إلاّ باللمس هي ميزة خاصة لهذا العمر.

إن الجلد هو العضو الحاسّ الأكثر اتساعاً، والطفل بحاجة إلى أن نحتضنه ونحمله ونهدهده ونداعبه. إن حاسة اللمس بالإضافة إلى الوظائف الحسية كالبصر والسمع مهمة جداً ولكن من الصعب برهنة ذلك. فهي بالحقيقة تتضافر مع الاتصال البصري والسمعي. غير أن حاسة اللمس في هذا العمر تعتبر نوعاً من

اللغة. فالاتصال بالجلد والحرارة هي مثيرات قوية جداً تكفي لإيقاف بكاء الطفل. فالطفل يدرك نعومة وفظاظة الحركات. ويسمي آجورياغيرا الإمساك بالطفل بطريقة لطيفة ومتكيفة «الحوار المنشط». لقد برهن إسكالونا وآنا فرويد على أهمية الإسهامات اللمسية كمنشطات للوظائف الحيوية وتحدثا مطولاً عن دور نقصان الاحتكاك اللمسي في الكشف العلمي عن أسباب بعض اضطرابات السلوك اللاحقة. ومعطيات علم السلالات تدل كذلك على أن صغير الحيوان كالهر أو الكلب هو بحاجة إلى أن تحتضنه وأن تلحسه أمه كما أن نموه يرتبط بقوة بعدم وجود نقص في هذا المجال. لقد استنكرت إرين ليزين طريقة المعاملة الجافة وأحياناً الصادمة التي يعامل بها الأطفال من قبل الممرضات في دور التوليد. وذكرت بأن الطفل حتى في عمر ثلاثة أو أربعة أيام ليس غرضاً يمكن معاملته بفظاظة ولا أحد يعلم حتى الآن ماذا يمكن أن تكون نتائجها على الطفل.

XII ـــ السيطرة على العضلات الصّارة

إن اكتساب «النظافة» التي تبدأ في السنة الثانية من العمر هو بلا شك العملية التي تكون فيها نوعية العلاقة العاطفية بين الأم والطفل أساسية.

فالمبولة والشرج يغلقان بواسطة نوعين من العضلات الصارة. فالعضلات الملساء تتقلص وترتخي بطريقة ارتكاسية لا إرادية. والعضلات المضلعة يتحكم بها الجهاز العصبي المركزي وتقلصها أو ارتخاؤها هو إرادي. فالطفل يحتاج إلى بعض الوقت ليكتسب السيطرة على هذا الجهاز. إن السيطرة على التبول والتبرز تشكل التعلم الأكثر ذاتية للطفل. إن السيطرة على العضلات الصارة الشرجية هي أسهل من السيطرة على عضلات المبولة على الأقل، لكون عدد التبرز في اليوم هو أدنى من عدد التبول. والنظافة خلال النهار تكتسب قبل النظافة في الليل.

إن العملية الفيزيولوجية لإفراغ الأمعاء بسيطة. فجميع الأمور مترابطة. إن حركات الأمعاء تبدأ بشكل آلي وغير خاضعة للإرادة. تحدث حركة كِتَل الأمعاء كل عدة ساعات. وكل محتوى الأمعاء ابتداء من جزئها المعترض ينقسم إلى عدة كتل مستطيلة وينزل باتجاه الشرج. فالضغط الذي يحدث بهذا الشكل في الشرج

يثير تقلصات عضلات البطن وارتخاء العضلات الصارة الشرجية. هذا ما يعرف «بالرغبة في التبرز». فالإرادة لا دور لها إلاّ على العضلات الصارة كما رأينا سابقاً. فحركة الأمعاء العفوية تشكل القوة الأساسية لعملية الإفراغ. فإذا فرضت الأم على الطفل توقيتاً للتبرز يناسبها هي دون أن تأخذ بعين الاعتبار توقيته الداخلي فإن الحافز الفيزيولوجي يزول ويؤدي عدم الانتظام البيولوجي هذا عند الطفل إلى الإمساك[1]. إن تحديد التاريخ الطبيعي لاكتساب النظافة ليس سهلاً ومن أبسط الأمور أن نعود في هذا الموضوع إلى المجتمعات التي لا يتدخل الكبار إطلاقاً في تربية العضلات الصّارة. فعند الشعوب الأكثر تخلفاً يصبح الأطفال نظيفين بصورة تلقائية حوالي عمر الثلاث سنوات. وعلى عكس الأطفال الغربيين ليس لديهم أي اتجاه للعب بمؤخرتهم كما أن الإمساك هو آفة غير معروفة. أما في مجتمعاتنا فانتظار ثلاث سنوات لينظف الطفل طويلة جداً لذلك نحاول أن نسرّع هذا التعلم. تعرض جنيڤييف دوليزي دوبارسفال وسوزان لالمان نظرة تاريخية عن النصائح الطبية المعطاة ابتداءً من عام 1921 حيث ينصح الدكتور بوليو الأهل ببدء «الترويض» منذ الولادة ونصل إلى أطباء الأطفال الحاليين الفرنسيين أو الأميركيين المتفقين على عمر وسطي هو بين 15 و 20 شهراً..! وعندما نلاحظ أن السن التي ينصح بها لبدء الترويض تتراوح حسب المؤلفين والسنوات ما بين الولادة وعمر العشرين شهراً، يتساءل هؤلاء المؤلفون «هل ان الذي تغير هذا التغير الشديد هو قدرة الطفل الصغير أم أنها قدرة هؤلاء المؤلفين على التقدير هي التي تغيرت؟».

إن تعلم النظافة لا يشبه بأي وجه من الأوجه أنواع التعلم الأخرى (الطعام، المشي، الكلام). فعلى مستوى السيطرة على العضلات الصارة يقع دور المربي بمجمله في الخانة العاطفية، والمزايدة والهدايا. ومن المستغرب جداً أن التقليد وهو القاعدة الأساسية لأنواع التعلم الأخرى ليس له هنا أي دور فيقال دائماً للطفل أشياء من نوع: «ألا تريد أن ترضي أمك، وأباك والأخلاق والذوق السليم، عليك إذن بالتبرز». ولا يقال له: «إعمل مثلي، أو مثل أخيك أو أختك أو مثل الآخرين..».

---

(1) L. Rossant, L'alimentation du jeune enfant de 10 ans, P.U.F. «Que sais-je?», n° 1999.

أما فيتزوغ دودسن فيصر هو بدوره على أهمية التقليد:

إن العديد من الوالدين خوفاً منهم على دور الوظائف في العائلة لا يستخدمون غريزة التقليد عندما يريدون تعويد الطفل على أن يصبح نظيفاً. فإذا كنتم أكثر تساهلاً على هذا الصعيد وإذا رأى الطفل أحد والديه يذهب إلى التبرز فهذا يساعده على تعلم النظافة.

إن الجميع يعلم أن هناك أمهات نجحن في تعليم الطفل النظافة منذ ثالث أو رابع أو سادس شهر. في الحقيقة إنهن لم يعلمن أطفالهن أي شيء. بل بكل بساطة تمرسن في مراقبة الوقت المنتظم الذي يقوم به الطفل بحاجته عن طريق التعرف إلى التغير في وجهه وسلوكه ساعة يقوم «بالدفع» وبوضعه على كرسي التبرز في الوقت المناسب.

نذكر هنا الأمهات التعيسات اللواتي هدرن حياتهن تعباً مدة سنتين أو أكثر بوضع طفلهن على وعاء التبرز كل ساعتين ليحصلن بالنتيجة على ولد نظيف بعمر السنتين أو السنتين ونصف وهو العمر الذي سيصبح فيه نظيفاً بكل الأحوال لو بدأنا بتعليمه ذلك فقط قبل شهر أو حتى بدون أي تعلم كما برهنت على ذلك بعض دراسات علماء النفس حول التوائم.

وكما كتب لولونغ في الحقيقة: «إن الترويض المبكر يجعل الأم خاضعة للاستشراط وليس الطفل». ويضيف بواسيير: «إنه من العبث وضع الطفل على وعاء التبرز بعمر ثلاثة أشهر بقدر ما هو عبث من الناحية العصبية تعليمه على المشي أو الإمساك بملعقته في هذا العمر».

فالنظافة هي نتيجة النمو الطبيعي. فالطفل لا يصبح ناضجاً بشكل كاف للسيطرة على عضلاته الصارة إلاّ خلال السنة الثانية من عمره حوالى 16أو 18 أو 24 شهراً بالمتوسط. فيجب أن ننتظر ليس فقط النضج العصبي ـ العضلي بل أيضاً النضج العقلي الذي يسمح للطفل بأن يفهم ويعبر عن نفسه وكذلك النضج العاطفي فهو بصورة ما تعبير الطفل عن رغبته في إسعاد أمه: «فقضاء حاجة الطفل في وعاء التبرز هو الهدية الأولى التي يقدمها الطفل لأمه».

وبالنسبة إلى فرنسواز دوكتو يحصل هذا الأمر تقريباً في عمر السنتين، «فعندما يصبح الطفل قادراً على الصعود على سلم حتى آخر درجة منه ويمسك بها بيديه فإن جهازه العصبي يكون قد تكوّن ويستطيع أن يصبح نظيفاً إذا كان متنبهاً».

وبالنسبة إلى بنجامان سبوك، إن النضج الضروري للسيطرة على العضلات الصارة ملازم لبعض المكاسب النفسية والحركية الموازية لهذا النضج وهذه يجب التأكد منها قبل الإقدام على أي تعليم. فالطفل الناضج إلى حد يكفي لأن يصبح «نظيفاً» هو الذي يقدم لأبيه عندما يعود في المساء من عمله أو لزائر يجده لطيفاً، يقدم لهم ألعابه على أن يستعيدها فيما بعد. إنه ذلك الطفل الذي يحب اللعب من نوع وضع أشياء في وعاء أو الذي يقلد أكثر فأكثر بمسلكه وبلعبه الكبار. وهو أيضاً ذلك الولد الفخور بمكتسباته والذي يحب أن نهنئه على ذلك. ينصح برازلتون بتجنب كل إجراء قمعي: فمعظم الأطفال يصبحون نظيفين في النهار بعمر 28 شهراً وفي الليل بعمر 36 شهراً. ويقترح أن ننتظر رغبة الولد بنفسه بقضاء حاجته على وعاء التبرز. فعلى الأهل أن يقدّموا له وعاء ويتركوه يلعب به ويعلموه كيف يستخدمه عندما يصبح كبيراً وهذا هو المطلوب. فيجب تجنب أي ردة فعل غاضبة وأي صفعة على القفا وأية سخرية واستهزاء وأية إهانة توجه للطفل في حالة وقوع أي حادث. على العكس يجب تهنئة الطفل لأنه تصرف كإنسان كبير وليس كطفل.

يعتبر علماء التحليل النفسي أن الطفل يكتشف تدريجياً ابتداءً من عمر السنة «اللذة الشرجية» (انظر فرويد). يختبر أحاسيسه في عضلاته الصارة: فيشعر بامتلاء خزاناته، ويكتشف أن بإمكانه إفراغها أو السيطرة عليها بإرادته. فالإفراغ يعطي في الوقت نفسه شعوراً بالارتياح وإثارة للأغشية فتعطي للطفل إحساساً باللذة. فهو يلعب (يتلذذ) بعضلاته الصارة. وهو فخور بفضلاته التي يعتبرها ملكه. ويأسف لاضطراره إلى التخلي عنها. ورؤية هذا الجزء منه يختفي في الزلاقة عندما تندفع المياه بضجيج مخيف يشكل أحياناً بالنسبة إلى الطفل في هذا العمر اضطراباً نفسياً خطيراً. . .

كما أن الطفل يلاحظ أنه أمر مزعج البقاء بحفاظ (حفاض) وسخ فيبدي

عندها ازدواجية في المشاعر، شديدة الوضوح. عندئذ سيصبح بإمكانه تعلم النظافة. وفي حال كان هناك صراع عاطفي خفي بين الطفل وأمه أو إذا كان «الترويض» فجائياً ويدفع الطفل إلى موقف ثوري فإن رفض النظافة يصبح بالنسبة إليه أفضل طريقة للتعبير عن عدم موافقته.

إن طابع اللعب أو حتى الجانب الجنسي للعلاقة بين الطفل والأم قد جرى التعتيم عليهما كلياً في كتب الاعتناء بالأطفال الصغار، كما أظهر ذلك دوليزي دو برسڤال ولالمان.

فالملاحظة تدل على أن جلسات تبديل الحفاظ أو الوضع على وعاء التبرز يمكن أن تكون مناسبة تبادلات شديدة الزخم في التأثيرات بين المتعارضين. ولا شك أنه ليس من قبيل الصُدفة أن يكون جانب اللذة في الإرضاع هو بالتحديد ما يمحوه ويتجاهله الاختصاصي.

يؤكد المحللون النفسيون أن الطفل «المروض» باكراً على النظافة لديه كل الاحتمالات لأن يعاني فيما بعد من اضطرابات: إمساك، اضطرابات في السلوك (غضب، قلق، الخ..) صعوبات نفسية (خلفة، عصاب هجاس، التبول في الليل، تصلب، بخل، تقليدية، الخ..) كلها تتكرر فيما بعد.

XIII ـ الجنس عند الطفل

إن اكتشاف وفهم التصرفات المتعلقة بالجنس هي بالنسبة إلى الطفل مهمة صعبة. فالإنسان البالغ يجد صعوبة في اعتماد الموقف الصحيح تجاه جنسية الطفل بما يتناسب مع عمره ولغته وحاجته إلى المعرفة أو إلى عدم المعرفة. فالجنس عند الطفل يبدأ خلال السنوات الأولى من عمره باكتشافه جسده وخاصة بعض المناطق المميزة فيه كمصادر للذة. فيما بعد يصبح اكتشاف الفرق بين الجنسين مصدراً للعديد من الألعاب والنظريات والأسئلة المتروكة غالباً بدون إجابات يجب على الأهل المصابين بالنسيان الكامل لهذا الموضوع[1] تقديمها. المراحل الكلاسيكية

(1) S.- D. Kipman, D.Rapoport, la sexualité «oubliée» des enfants, Stock-Laurence Pernoud, 1993.

للجنسية الطفلية سيجري توسيعها لاحقاً (انظر فرويد).

إن الطفل يكتشف الفوارق الجنسية بين الصبي والبنت في حوالي عمر سنتين ونصف وثلاث سنوات. «لماذا الصبيان ليسوا كالبنات؟». ومن ثم في حوالي الثلاث أو أربع سنوات يبدأ بطرح الأسئلة الأولى حول أصل الحياة، وقد تكون مباشرة («من أين يأتي الأطفال؟») أو غير مباشرة (فلا يطرح السؤال بحد نفسه ولكن يبدي الطفل بعض الافتراضات وبعض الدعابات البريئة أمام امرأة حامل بطنها كبير، أمام حيوانات، الخ. . أو بعض المحاولات الغريبة: كمحاولة فتاة صغيرة أن تبوّل وهي واقفة كالصبيان، الخ). على الوالدين أن يستعدوا للإجابة دون أن يثيروا بالضرورة غير أسئلة. غالباً ما يأتي السؤال بعد عدة أشهر أو سنوات: «كيف يصنع الأولاد؟» فإذا كان الوالدان لا يملكان الشجاعة للإجابة عن الأسئلة أو لا يعرفون كيف يجيبون يمكنهم إعطاء الفتى أو الفتاة واحداً من الكتب العديدة للأطفال التي تعالج هذا الموضوع[1]. يوجد في معظم الأحيان في المدارس الابتدائية والروضات حيوانات صغيرة (حمامات وأرانب الخ. .) وهي بالنسبة إلى الولد خير وسيلة لملاحظة التزاوج والحمل والولادة والإرضاع، الخ. . وتركز فرانسواز دولتو كثيراً على ضرورة تعليم الأولاد، إلى جانب التنشئة الخاصة بالحياة الفيزيائية والبيولوجية للتكاثر، القيم الأخلاقية للحب والرغبة في الإنجاب والمحرمات بين الأخ والأخت والأب والابنة والابن والأم التي هي بالنسبة إلى هذه المحللة النفسية أساسية في التربية الجنسية.

أما العادة السرية فهي شيء طبيعي عند الطفل لا تستحق الاهتمام ولا العقاب. فالتهديد السخيف: «سنقطع لك الحنفية» الموجه للولد الذي يداعب عضوه هو في أساس مشاكل نفسية خطيرة. فيجب إفهام الطفل أن هذه الحركة يجب ألاّ يقوم بها أمام الناس لمجرد الحياء لأنها ليست ذات أهمية. تروي فرانسواز دولتو حول هذا الموضوع طرفة معبرة:

كان في إحدى الروضات طفل بعمر سنتين مع شقيقة له تكبره بسنة واحدة. بعد عدة أسابيع أصبح الصبي يعاني من تبول ليلي. حاول الأهل بكل

---

(1) D. Elia, la vie, l'amour racontés aux enfants, Editions n° 1, 1988.

الوسائل وخلال ست سنوات معالجة هذا الأمر ولم يجدوا السبب. وفي إحدى السهرات كانت الأم تناقش مع أصدقاء لها موضوع التربية المدرسية تذكرت الأم جملة ذكرتها لها ابنتها في بداية تلك السنة المدرسية وهي أن الراهبة التي تهتم بالأولاد قالت لهم: «إذا رأيت أحدكم يلعب بعضوه أقطعه له. فهذا غير لائق وغير أخلاقي».

وأضاف الأب: عندها راضينا الابنة قائلين لها أن لا خوف عليك لأنك لا تملكين عضواً ولكن نسينا حينها أن الطفل كان قد سمع هو الآخر هذه الجملة. فكان يتذكر كل صباح عندما يريد الذهاب إلى الحمام هذه الجملة فيكتفي بالتبول في الفراش. في اليوم التالي بعد هذه المناقشة تحدث الأهل مع الطفل. وانتهى الموضوع في اليوم نفسه. بعد ست سنوات من العذاب ومن الانطواء على نفسه ومن عدم الانفتاح. كانت كارثة حقيقية! إنه أمر لا يصدق وهذا ما جعلني أرويه لأنه يمكن أن يحصل بالفعل..».

Cité dans F. Dolto, lorsque l'enfant parait, t.2, Paris, Le Seuil Ed.)
.(1978

XIV ـ نمو النطق

إن النطق هو وسيلة اتصال قائمة على نشاط رمزي. فنتكلم ونعلّم الكلام لحاجتنا إلى التواصل. والكلام هو إحدى وسائل الاتصال الأكثر انتشاراً. إن تطور الكلام شديد التعقيد. فالكلام يتطلب السيطرة والتناغم في الحركات التي تؤثر على الهواء الموجود في القصبات الهوائية والصوتية. فهذه الحركات تغير مجرى الهواء الموجود داخل الرئتين، والحلق والأنف والفم بطريقة تحدث ترسيمات مفصلية تسمح بإصدار الصوت المرغوب. فهذا يتطلب عدة مئات من الأحداث العصبية ـ العضلية لكل ثانية من الإنتاج. لذلك يجب أن يتوافر عند الطفل من جهة قدرات برمجة مقاطع الحركات المفصلية المربوطة بالأجزاء المتميزة للكلام ومن جهة ثانية السيطرة على هذه الحركات وتناسقها وتنظيمها الزمني. إن تأثير الأهل ودار الحضانة وصفوف الروضة والوسط الذي يعيش فيه الطفل هو أيضاً حاسم.

وخلال نمو الطفل التدريجي تتوالى بالنسبة إليه «مستويات من اللغة» مختلفة ثم تجتمع في الزمن[1].

1 ــ الاستهلال، والبكاء والصراخ

هذه هي وسائل التعبير الأولى للمولود الجديد. إنها باكورة اللغة، فهذه الأصوات تشكل إلى حد ما دعوة ومحاولة أولى للتبادل. إن الطفل يقوم بتجربة إصدار صوت يستحث إجابة مناسبة من المحيطين به. فنبرة الصراخ متنوعة وباكرة جداً وتميز الأم عند طفلها صراخ الغضب من التعب والألم والجوع والفرح فتقدم له ما يلائمه من إجابات. والبكاء بالنسبة إلى الطفل هو وسيلة الاتصال الفضلى لطلب النجدة. فهو يقلق الأم دائماً ويدفعها إلى المجيء سريعاً. وهو عبارة عن ردة فعل ارتكاسية لوضعيات مزعجة لا يستطيع الولد السيطرة عليها وحده. والبكاء هنا لم يصبح بعد متعمداً. ومعنى البكاء يمكن أن يختلف كلياً تبعاً للحالات. فنبرة الصوت وتعبير الوجه، وحركات المص، والإيماءات والابتسامات، وإيقاع التنفس، والإشارات، ووضعية الجسم تساعد كلها على فهم الرسالة. لقد أثبتت التجارب أن الصراخ الأول لا يدل على جنس الطفل. فالمؤشر السمعي لا يسمح بتمييز جنس الطفل خلال الأشهر الأولى. لقد توصل الباحثون إلى تمييز عدة أنواع من الصراخ حسب النغمة، والموجة (1000-4000 هرتز) والقوة. لقد حاولوا بالتجريب اكتشاف ما يكتشفه الأهل بكل عفوية. فالصراخ يعبّر تارة عن الحاجات والرغبات والمخاوف والأوجاع وتارة عن الفرح. أما البكاء في حالة الجوع فهو الأكثر وضوحاً. أول صوت «واع» قليل الحِدَّة، يستمر ثانية. يليه «صفرة شهيق» مقطوعة وشديدة الحِدَّة؛ ثم تتكرر بعد لحظة هدوء. وهذا يؤدي عند الأم التي ترضع بالثدي إلى درّ اللبن. أما بكاء الغضب فهو الصيغة المضخمة لما يحدث في السابق: فالنغمة أكثر حِدَّة، والزخم أقوى وترابط الحلقات أسرع. وكذلك بكاء الألم فهو مميز: ويستدعي حضور الأهل الفوري. ويبدأ بصرخة تستغرق أكثر من أربع ثواني ثم يليها توقف كامل من سبع ثواني من الزفير ثم يتكرر الصراخ ثم شهيق سريع يسبق الزعيق. فبكاء الألم الحاد قوي ورفيع ويتناسب مع شدة الألم.

---

(1) R. Dailly, Le développement du langage oral de l'enfant, Médecine infantile, 1985, P. 92, 3.

فكلما كان الألم شديداً كان البكاء حاداً. أما البكاء من ألم متواصل فهو رتيب ومنخفض. أما البكاء بسبب الحرمان فهو من النوع نفسه: بكاء ثم استراحة تنفسية طويلة. يمكن أن يتطور بعد عدة أشهر باتجاه تقلص في الصرخة مثير للدهشة. وبكاء النعاس يأتي مباشرة بعد الطعام. ويشبه بكاء الجوع، أما صراخ الفرح فله نغمة وزخم مختلفان باختلاف شخصية الأولاد.

وحوالى عمر الشهرين يصبح التأوه الممتد (خارج حالات المرض) نداءً حقيقياً: فالارتكاس تحول إلى سلوك هادف. إذ إن الطفل سجل إجابات المقربين إليه لصراخه وبدأ بإعطائه تعابير متميزة.

2 ـــ الزقزقـة والثغثغـة

الزقزقة لها دلالة صواتية وعاطفية. فهي تدل على حالة رضى وتبرهن على اكتساب الولد لعدة أنواع من الصواتة. فالأحرف الصوتية (Voyelles) تكتسب أولاً (أ ـ إ أو a - e ou) في حدود الشهر الثامن من العمر. بين الاثني عشر والستة عشر أسبوعاً يقيم الطفل على طريقته أحاديث طويلة مع أمه. وفي عمر الأربعة أشهر يبدأ الطفل بتنويع تنغيمه. وفي الشهر الخامس يزداد اهتمامه بنبرات مختلف الأصوات التي تحيطه. وفي حوالى العشرين أسبوعاً ينطق بالآغ (ah reuh) المعروفة. وفي 28 أسبوعاً يقول «با» «كا» ويبكي وهو يلفظ «مم» «mm» كل أطفال الأرض تزقزق بالطريقة نفسها: إنها لغة عالمية!.

أما الثغثغة التي تأتي فيما بعد فيمكن تمييزها حسب اللغة الأم. ويرتبط اكتسابها بنقصان في الإمكانات الفطرية. لقد برهن بوير[1] أن الأطفال الصغار يملكون قدرات لغوية تتراجع تدريجاً مع العمر. فالطفل يأتي إلى العالم وهو مهيأ للتواصل مع أي نوع من الجماعات اللغوية التي سيكون بينها. واللغة التي سيتكلمها في النهاية تتوقف على اللغة المحكية من قبل الذين تعلم أن يتواصل معهم في إطار غير كلامي قبل أن تبدأ اللغة عنده بكثير. ويوجد في ثغثغة الأطفال مسبقاً بعض الارتباطات بلغة المحيطين بهم. وتطور اللغة يتأثر في الواقع

(1) T.G.R. Bower, Le développement psychologique de la première enfance, Mardaga, 1978.

بالخصائص المميزة للغة الجماعية: فاللهجة المناطقية مثلاً تتطلب زخماً في الصوت أكبر عند لفظ الأصوات الحادة(1). إن الأطفال الصم يتمتعون حتى عمر أربعة أو خمسة أشهر بنماذج الإصدار الصوتي نفسها الموجودة عند الأطفال السامعين. وهذه الأصوات تتوقف عند العمر الذي تبدأ فيه الثغثغة عند الأطفال السامعين.

3 ـــ ظهور المقاطع الصوتية

حوالى عمر الستة أشهر يبدأ الأطفال بالسيطرة على تنفسهم واستخدام نشاطهم التنفسي والحلقي لإصدار رسومات صوتية. فيصبح بإمكانهم تنويع النغم والدينامية ومدة الإصدارات الصوتية. ويكتسب الطفل تدريجاً السيطرة على حركات اللسان الدقيقة والشفاه التي تسمح باللفظ الدقيق للمقاطع. تظهر المقاطع الصوتية في عمر ستة أشهر وتتميز عن الزقزقة. ويكررها الطفل بدون توقف. هذه المقاطع المضاعفة (بابا، دادا، كاكا. . .) يعيدها من يحيط بالطفل وتدل على شيء معين. وهكذا تظهر «الكلمة الأولى».

إن انطباق الكلمة هذا على الشيء هو الاستخدام الرمزي الأول للغة. فكلمة «بابا» تصبح ذات معنى في حوالي عمر 44 أسبوعاً. وفي كل لغات العالم تسمية أب تأتي من مقطع سهل تم اختياره ليأخذ معناه: «بيّ» في العربية، «پا» في الصينية. . .

إذن هناك في البدء المقطع الذي سوف يعطيه الطفل معنى. وتفسر دانيال رابوبور ذلك الأمر بأن الأهل الذين يحيطون بالطفل هم الذين يعطون هذا المعنى وليس الطفل. إنهم هم الذين يعطون للصواتات التي يلفظها الطفل معانيها، إنها ظاهرة مفتعلة:

إن التكرار هو الطريقة المثلى لاكتساب اللغة. وإذا كان هناك من ظاهرة ما عالمية فهي بالتحديد الصواتات والتنغيم والتكرار. ولكن المعنى الذي سنضعه لهذه الصواتات التي يرددها الطفل والتي هي خاصة بكل أسرة ليس له أية صفة

---

(1) B. de Boysson - Bardies, la production de la porale, in Les premières années de la vie, Sciene et Vie, n° 145, (décembre 1983).

عالمية بالتأكيد. فتنغيمات الطفل تتأثر بالأصوات التي سمعها وهو داخل الرحم. فيكون المولود الجديد قد اختار بعض الصواتات من خلال ما سبق أن سمعته أذنه. فهو قد أصبح مطبوعاً بموسيقى اللغة الأم. ولكنه ما زال بعيداً عن السيطرة على المعنى: فهو ما زال يتكلم لغة مشتركة بين كل أطفال العالم، هي لغة التنغيم. فمن هنا تأتي أسطورة برج بابل التي يرجعونها إلى العصر الذهبي للإنسانية التي لم تكن تعرف إلاّ لغة واحدة.

4 ـــ الرطانـة (Le jargon)

في حوالى عمر العشرة أشهر يستطيع الأطفال إصدار سلسلة من المقاطع بدون تكرار. هذه الرطانة تبدأ حوالى عمر 14 شهراً. وهي تتألف من صواتات بسيطة تشبه الكلمات ومن بعض الكلمات. ووقعها شديد التمييز لدرجة تسمح بمقارنتها بلغة أجنبية حقيقية، إنها بالنسبة إلى الطفل لعبة ذات قيمة تبادلية. وبين عمر 12 و 18 شهراً على الطفل أن يكون قد تعلم المبادىء الأساسية للغة ليفهمها ويتمكن من استخدام بعض الكلمات التي تشكل جزءاً من الرطانة العائلية ولو بشكل محدود. إن فهم هذه التعابير وترجمتها هو وقف على أفراد الخلية العائلية أو من هم مقرّبون جداً من الطفل.

بين عمر ثمانية عشر شهراً وسنتين تظهر كلمة «لا» التي هي أول تعبير رمزي خالص يلفظه الطفل. و «اللا» لا تمثل شيئاً أو شخصاً أو حتى وضعية محددة. إنها مفهوم رمزي، مفهوم النفي. و «اللا» تدل على اكتساب الطفل للوظيفة الرمزية للغة. فيصبح الطفل عندها قادراً على التلاعب فكرياً بتجريدات غير موجودة واقعياً.

في الوقت نفسه، تدل «اللا» على الدخول في «السلبية» أو مرحلة المعارضة وهي مرحلة ضرورية في نمو الطفل لتأكيد شخصيته.

لا يسعنا إلاّ أن ندهش لانتظام وسرعة تطور الإنتاجات الصوتية بين الولادة ومرحلة «الكلمات الأولى». في حين أن الطفل يحتاج إلى عدة سنوات ليصبح قادراً على ربط عقدة حذائه. فسنتان وأحياناً أقل تكفيان لتمكين هذا الطفل نفسه من إنتاج لغوي هو بحاجة إلى قدرة سيطرة على جهاز حركي شديد التعقيد وإلى

«معرفة» سبق وتمت صياغتها لقواعد اللغة الأم الصوتية والنحوية.

5 ـــ تنامي المفردات

إن الطفل ينطق بثلاث كلمات في السنة الأولى من عمره بالمتوسط. بينما يظل نمو المفردات بطيئاً حتى عمر ثمانية عشر شهراً وهو مدهش بين 21 و 24 شهراً. يتطور كل طفل وفق نمط خاص به ولكن في حوالي 18 شهراً يلفظ الطفل بشكل عشوائي كلماته الأولى. ولكنه على العكس يفهم كل الكلمات التي يسمعها من حوله. ولا نعلم الطفل الكلام بجعله يردد الكلمات بل بأن نقول أمامه أسماء أشياء تهمّه. ورغم قبولنا بلغة «الطفل» الخاصة به من المفضل أن يستخدم البالغ الكلمات الصحيحة عندما يتحدث إليه. ومن أجل اكتساب كلمات جديدة يجب على الطفل أن يقلّد ولكن يجب على الأهل أن يتيحوا له إمكانية اختبار الأشياء ولمسها والإمساك بها واكتشاف كل خصائصها (الحرارة، الوزن، الملمس، الخ. .) ودراسة كيفية استخدامها. وعندما يستحيل هذا الاحتكاك بالأشياء نفسها يمكن استخدام «الألبومات» الموضحة، مثل «ألبوم» L'imagier du Père Castor»، التي هي ذات فائدة كبيرة في هذا التعلم ابتداءً من سن 18 شهراً. في هذا الطور الأولي للاتصال الكلامي الحقيقي لا يستخدم الطفل إلاّ كلمة واحدة يضفي عليها معنى الجملة (كلمة ـ جملة أو كلمة آحادية التعبير). هذه الكلمات الأولى هي إذن «كلمات حقيبة». مثلاً على ذلك كلمة «لولو» تعني في الوقت نفسه اللبن والرضّاعة والجوع والعطش، ولذة الشرب، والأم التي تعطي الغذاء، الخ. و «بوبو» تعني الألم، المكان المؤلم، مسبب الألم. . . بعد هذه المرحلة يقوم الولد بتجميع كلمتين لكل منها معناها فيؤلف «جملاً قصيرة»: «بي بي بوبو»، «أعطي ماء» «بابا ذهب»، الخ. . ويعجز الولد في البداية عن قول أكثر من كلمتين دفعة واحدة. وتكون الجمل عادة مؤلفة من فعل يليه كلمة تدل على شيء محسوس («أريد طابة») دون أدوات تعريف أو تصريف أو حروف عطف أو أفعال مساعدة.

إن ظهور اللغة لا يعني مع ذلك اختفاء لغة الإشارات غير الكلامية الموجودة سابقاً والتي هي شديدة الاتساع. فالإشارات والكلمات متلازمة. ولغة الجسد تشترك مع الكلام. في حوالي عمر السنتين ومع تقدم اللغة الشفهية تختفي تدريجاً

بعض إشارات لغة الجسد بينما يتدعم بعض منها ويجري أحياناً استخدامها بوتيرة متصاعدة. فالأطفال يستخدمون الكلمات ليعطوا مزيداً من الزخم لرسائل منقولة بلغة الجسد وليس العكس. فإذا أراد أحد الأطفال أن يأخذ ألعاب طفل آخر مثلاً فهو يقوم أولاً ببعض الإشارات ليوضح طلبه وفق مجموعة رموزه غير الكلامية. فإذا لم يحصل على ما يرغب يلفظ عندها الكلمات «أعطني» أو «أنا أريد».

6 ــ ظهـور الجمـل

إن الجمل الأولى تتضمن فعلاً بصيغة المصدر: إنها مرحلة التعبير البرقي. في عمر السنتين يركب الطفل جملاً صغيرة من كلمتين أو ثلاث كلمات. ولا يستخدم الضمائر وأدوات التعريف. وما يزيد الطفل متعة في «التكلم» هو أن الأهل يفهمون ما يقول. فتفهم المحيطين بالطفل هو أساسي، فالوالدان بإعطائهما لهذه الأصوات معنى وقيمة تواصلية يستحثان عنده الرغبة في التكلم. يبدأ الطفل باستخدام الروابط: من، لأجل. ويضيف الظروف: الآن، بعد قليل. يبدأ كذلك باستخدام الضمائر ولكن تظل السيطرة دائماً للأفعال ويسخدم كذلك كلمات من الرطانة العائلية. وشيئاً فشيئاً تتنامى المفردات لتشكل إرثه اللغوي. وفي عمر 27 شهراً تقريباً تصبح الجملة أكثر صفاء فيستخدم الطفل الفعل الماضي ويفهم صيغة النفي وأدوات التدقيق مثل: (كثيراً، قليلاً، لماذا...) وفي حوالي عمر الثلاثة سنوات تتدفق النعوت بكثرة.

ويلفظ اسمه واسم عائلته ويصف صورة يراها ويستعمل الضمائر وأدوات التعريف ويسأل: «متى؟» «لماذا؟»، واللغة تصبح أكثر تنظيماً وأفضل صياغة. ويظهر ضمير «الأنا» في حوالي الثلاث سنوات.

في سن الأربع سنوات تصبح المفردات أكثر غنى باستخدام صفات التمايز، وكلمات الارتباط. فالطفل يعرف مقارنة ما هو أكبر مع ما هو أصغر. وفي هذا العمر ينطلق الكلام الذي تسيطر عليه الأسئلة المستمرة.

في عمر 5 سنوات تظهر الأسماء الموصولة، وروابط النسق؛ ويصرّف الطفل الأفعال، ويعرف أسماء الألوان؛ ويتلاعب باللغة بسهولة؛ وغالباً ما تستمر بعض العثرات المرتبطة بسوء استخدام القواعد ولكنها تزول في حوالي عمر الست سنوات.

وتدريجاً، يستخدم الطفل الموصوفات والأفعال والنعوت.

ويتمكن الطفل خلال ثلاث أو أربع سنوات من السيطرة على البنية المعقدة للغة. وكل أسرة لها تعبيرها المختلف. فكل أب أو أم يستحث الطفل بالتكلم معه بطريقة خاصة به. ومع ذلك فكل الأطفال سيتوصلون إلى اكتساب البنية النحوية[1] نفسها. وسوف يصبحون أعضاء في الجماعة اللغوية نفسها. إن اللغة المبنية تلعب وظيفتين في الاتصال: الأولى هي الاتصال بالآخرين وهذا بديهي، والثانية هي أيضاً الاتصال بالنفس. فبالفعل إن الولد الصغير يتكلم مع نفسه وهذا يرافق ويسهل بشكل كبير نمو فكره وذكائه. فاللغة تلعب ضمن هذه المهمة وظيفة إدراكية، أي وظيفة تحليل، تركيب، وتجريد وتنمية الذاكرة والتفكير المنطقي. واللغة تسمح بنفسها بتوضيح الأفكار.

XV ـ تطور الفكر الحسي الأخلاقي عند الطفل

يتكيف الرضيع الصغير مع وضعية ما جديدة عبر سلسلة من التجارب والمحاولات التي تشبه سلوك الفرد الصغير. فاكتساب اللغة يميز مرحلة هامة: فهو يصبح قادراً على تخيل الحركات التي سيقوم بها دون أن يجربها مسبقاً. فهو يتصور عقلياً الحلول للمشاكل التي تواجهه.

إن الطفل الصغير ليس لديه «الضمير» الأخلاقي. فهو يتجنب القيام ببعض التصرفات التي يعرف أن أهله لا يحبذونها كي لا يفقد حبهم. فهو يتصرف على أساس مسموحات وممنوعات الأهل. في حوالي عمر ست سنوات يصبح تصرفه مستقلاً. إن اكتساب الحس الأخلاقي هو في الحقيقة مرتبط بموقف الوالدين.

XVI ـ نمـو الذكـاء

إن الذكاء هو مجموعة الوظائف العقلية التي يكون غرضها المعرفة المفهومية والمنطقية. وهو كذلك استعداد الكائن الحي للتكيف مع الوضعيات الجديدة

---

(1) J. Tronchère, L'enfant qui va parler. La découverte du langage au cours des trois premières années, Paris, Masson, 1978.

واكتشاف الحلول للمصاعب التي تواجهه. سوف نجد ضمن هذا الكتاب عدة أوجه لنمو الذكاء عند الطفل خاصة مع جان بياجيه. فقد جرت دراسة روائز الذكاء لقياس قدرة الذكاء الكلية أو حالة التطور العقلي عند الطفل أو شكل الذكاء أيضاً (شفهي أو عملي). وثم إعداد رائز ألفريد بينيه عام 1905 مع الدكتور سيمون من أجل اكتشاف التلامذة الذين يعانون صعوبات في صفوفهم وتعود إلى الصفوف المتخصصة. فهؤلاء المؤلفون إذن تصوروا اختبارات بسيطة يمكنها أن تكون ممثلة لسلوك معظم الأولاد في عمر معين. ورقم 100 اعتبر كمعدل متوسط. إن اختبارات رائز بينيه ـ سيمون قد جرى تحديثها (كاسولان 1959) وأصبحت تسمح بقياس نمو الذكاء ابتداءً من عمر سنتين كل ستة أشهر حتى عمر خمس سنوات وكل سنة حتى عمر 14 سنة. فالتحليل الإحصائي يسمح بوضع الشخص في مجموعات مختلفة:

ـ QI > 140: ذكاء شديد التفوق ـ الأكثر تفوقاً أو سباقون بشكل استثنائي: (0,4 إلى 0,8% من المجموعة).

ـ QI بين 120 و 140: ذكاء شديد التفوق أو مرتفع أو «متفوقون»: 3,5 إلى 10% من المجموعة.

ـ QI بين 110 إلى 120: ذكاء متفوق قليلاً أو «متوسط التفوق»: من 11 إلى 17% من المجموعة.

ـ QI بين 90 و 110: ذكاء عادي أو متوسط: 45 إلى 60%.

ـ QI بين 80 و 90: بطء في التفكير، ذكاء محدود: بين 15,3 و 17%.

ـ QI بين 70 و 80: حيز هامشي من عدم الكفاية: بطء، غباوة، حيز على حدود التخلف العقلي: 16 إلى 7,4%.

ـ QI: تخلف عقلي حقيقي.

إن مفهوم معدل الذكاء هذا QI قابل جداً للنقاش ويجب ألاَّ يختذل بيان التطور النفسي للطفل. يجب ألاَّ نعطي لهذا الرقم أهمية أكثر مما يستحق. إنه مؤشر هام بالطبع ولكن يجب تفسيره على أساس السياق العام والملاحظات الأخرى.

إذا خطرت لاختصاصيي التجميل فكرة حساب معدل الجمال وذلك بالقيام بحسابات دقيقة على أساس عرض الأوراك وطول الأنف ونعومة الجلد وسواها من القياسات التي تشاء فكل واحد منا سوف يقهقه من السخرية. فالجمال صفة شديدة الإرهاف بالطبع بحيث لا يمكن التعبير عنها بالأرقام. فلماذا لا نقهقه ساخرين أكثر فأكثر من الذين يقدمون لنا I من QI على أنها رمز الذكاء؟ (أ. جاكار، أنا والآخرين، باريس، سوي، 1983).

XVII ـ أهمية الرسم

يملك علماء النفس والمحللون النفسيون وسائل متعددة لمعرفة شخصية الطفل الناشئة بين عمر ثلاث وسبع سنوات. فبعضهم يستنتجون المعلومات عنه من طريقة لعبه والألعاب التي يختارها وأحاديثه العفوية، والقصة التي يخترعها لمسرحه من الدمى المتحركة، الخ.. إن تحليل الرسوم يسمح للاختصاصيين بحساب الذكاء وبالقيام بالمقاربة الأولى لقدرات الطفل وتحديد طبعه. فالرسم بالحقيقة هو وسيلة اتصال، «إنه الشخصية التي تعكسها المرآة»... ويمكننا من خلاله أن نحصل على دليل عن إدراك الطفل للمساحة وتنظيمه لها. لقد أشار جيمس سولي عام 1898 إلى أن «رسوم الأطفال، مهما كانت فظة وغريبة، فهي تكشف عن عملية النمو عندهم».

إن الرسم الشهير «للشخص» هو أحد الأمثلة الأكثر شيوعاً. فقد درس كل من كيرشنشتانير وجورج روما و ج. هـ. لوكيه كيف أن رسمة الطفل تترجم نموه العقلي.

ما هو الظهور الأول للوجه البشري الذي يترجم صورة الذات لدى الطفل سواء كان أميركياً أو أثيوبياً أو صينياً أو قبلياً أو أوروبياً؟ إنه «الشخص الضفدعة» الشهير وهي التسمية التي أطلقها عليه جيمس سولي؛ ويظهر في حوالي عمر الثلاث سنوات: وهو شكل مستدير فظ يتعلق به عدد متغير من الخطوط قد تكون ثلاثة أو أربعة أو أكثر؛ «الشخص يتمثل بشكل دائرة تعطي فكرة عن الشكل العام يثبت فيها خط أو خطان وهما الساقان ما يتمم التصور العام للصورة البشرية» (Rouma).

لقد أثبت ڤيدلوشير أن الطفل الذي ينكب على الرسم يعبر في هذا النشاط عن فكر بعيد جداً عن مجرد التسلية. إن الرسم يفتح أمام المحلل النفسي مداخل اللاوعي[1].

(1) M.- C. Debienne, Le dessin chez l'enfant, Paris, PUF, Coll. «Sup»;

D. Wildôcher, L'interprétation des dessins d'enfants, Bruscelle, Ch. Dessart, 1971.

الفصل الثاني

عوامل النمو

إن الوراثة والوسط ليسا متغيرين مستقل أحدهما عن الآخر والتبعية المتبادلة فيما بينها ليست في معرض المنافسة وليست مجرد قانون توازن حسابي. . . إن تأثير الوسط يعمل مع الوراثة وليس ضدها على تحسين الفرد أو تقهقره. بالطبع من البديهي أنه بواسطة الوسط ومجمل الغذاء المادي والاجتماعي تتحقق العوامل الوراثية. (ر. زازو).

إن نمو الطفل يخضع للتأثير الحتمي لعوامل قد تكون وراثية أو ناتجة عن الوسط، ومن الصعب الفصل بينهما إذ إن الطفل منذ ولادته منغمس في وسط خارجي سوف يؤثر عليه. لقد برهن جوليان دو آجورياغيرا (1911 ـ 1993) أنه ليس هناك أية وظيفة تنمو بمعزل عن الوظائف الأخرى: فالنضج العصبي الفيزيولوجي والتجربة المكتسبة من خلال الاحتكاك بالوسط المادي والبشري، والتأهيل الاجتماعي هي في تداخل دائم.

I ـ العوامل الفطرية

1 ـ العوامل الوراثية

إن بعض هذه العوامل مشترك بين كل أفراد الجنس البشري ـ فالنضج البيولوجي للجهاز العصبي داخل الرحم يرتبط بعملية تكون النخاعين التدريجي للمسالك العصبية انطلاقاً من الدماغ، ما يفسر النظام الذي من خلاله يخضع الأداء العضلي لسيطرة الإرادة. إن نظام المكتسبات الحركية للرضيع وللطفل يتوقف

مباشرة على النظام الذي من خلاله حصل النضج العصبي خلال الحياة الجنينية والرحمية.

إن الاندفاعات الغريزية تظهر كذلك في نظام من النضج مستقل عن التنظيم النفسي للطفل، فهي بالتالي الدوافع نفسها عند كل الأطفال. وفي بعض الحالات المرضية عندما يتوقف السير الطبيعي لهذا النضج يمكن للطفل أن يبقى «ثابتاً» عند مرحلة معينة.

إن التعلق هو أيضاً سلوك فطري. فقد ألح بولبي على التصرفات التي تأخذ قيمة تواصلية بين الطفل والأم مثل الابتسامات للأشخاص والمتابعة البصرية لهم، والإمساك بهم، الخ. وأخيراً إن الجنس قد يلعب دوره: فالفتيات لديهن اتجاه للمشي والكلام والسيطرة على عضلاتهن الصارة بصورة مبكرة أكثر من الصبيان.

غير أن بعضها الآخر هو أكثر خصوصية. فنمو الذكاء تحدده الوراثة بجزء كبير. ويلعب العامل العائلي دوراً في جوانب أخرى من النمو: فهناك عائلات يكون المشي والكلام والنظافة فيها مبكرة بشكل مميز بينما يكون شديد التأخر عند سواها في حين أن الجوانب الأخرى من النمو تبقى في حدود المتوسط العام.

2 ـــ العوامل المرتبطة بالحياة داخل الرحم

إنها الأحداث التي تجري منذ بداية الحمل وحتى الولادة التي يمكنها أن تؤثر على نمو الطفل. وهي بشكل خاص التشوهات الصبغية؟ (مُغُلية، الخ) أو الالتهابات (الحصبة الألمانية، توكسوبلاسموز، الخ) وهي سبب أمراض الجنين. إن اضطرابات الولادة (نقص أوكسجين الأنسجة، نقص السكر في الدم) هي في أساس العديد من التخلفات العقلية. فالطفل المولود قبل أوانه بشهرين تتأخر قدراته النفسية والحركية بالظهور شهرين عن الطفل الذي يولد في أوانه. ولهذا السبب يطرح موضوع العمر الحقيقي (القيد الرسمي) والعمر المصحح بالنسبة إلى الأطفال المولودين قبل أوانهم.

يعتقد العديد من الاختصاصيين أنه من المحتمل أن يكون الجنين قادراً على

الاحتفاظ بقدر ما من أثر الحياة الرحمية والولادة وأن يكون للظروف التي تمت فيها تأثير نفساني عليه. لقد اعتبر أوتو رانك وسواه من المحللين النفسيين أن «لصدمة الولادة» دوراً أساسياً في نشأة القلق.

II ــ العوامل الناتجة عن الوسط

1 ــ دور العلاقات الشخصية

إن الولادة تبدو كحلقة من حياة كانت قد بدأت مسبقاً على جميع المستويات الحسية. هل إن الطفل يحتفظ في أعمق أعماقه بذكرى عن أحاسيسه الأولى؟ ما هو دور هذه الذكريات المحتملة في حياته النفسية اللاحقة؟ إن المحللين النفسيين يقدمون إجاباتهم الخاصة عن هذه الأسئلة ولكن هل هذه هي الإجابات الوحيدة؟.

إن المسألة أكثر تعقيداً من ذلك، إن تشكل الجانب العقلي عند الطفل يبدأ حتى قبل الحمل. إن انعكاس التخيلات والأداء النفساني للأهل على مستقبل الأولاد أصبح اليوم أمراً معروفاً: إن الطفل له وجود في تخيّل الأهل قبل أن يصبح له وجود حقيقي ككائن حي وهذا التصور النفساني سوف يكون له أثره على سلوكه ونفسيته. إن «الأفكار» التي يكونها الأهل عن الطفل الذي سيولد تشكل «الطفل الخيالي» فيمكننا القول إن «الطفل هو في علاقة مع اللاوعي عند الأم». إن الشخصية العميقة للوالدين التي يساهم في تكوّنها تاريخهم الشخصي تلعب دوراً حاسماً في العلاقات المستقبلية مع أولادهم. تختصر فرنسواز دولتو هذه الفكرة مؤكدة على أن «كل طفل يولد في يوم ما، على والديه أن يقوما بتبنيه». . .

لقد برهن كل من سبيتز وبولبي أن نمو الطفل يتأخر بسبب النقص العاطفي. فهناك بعض الأمهات اللواتي لا يسمحن لطفلهن، لأسباب متعددة، باكتساب أنواع التعلم الأساسية. مثلاً على ذلك فمنهن من تمنعه من الوقوف على رجليه خوفاً من أن تتقوص ساقاه، وتتجنب أن تجلسه خوفاً من أن يتعب عموده الفقري، الخ. . وتقوم هؤلاء الأمهات أنفسهن بإلباس الولد ثيابه حتى عمر ثماني أو عشر سنوات! وهناك من الأهل من لا يتحدثون إلى أولادهم ولا يقولون لهم أسماء الأشياء ولا

يعرضون عليهم صوراً ولا يروون لهم حكايات. كل هذه التصرفات تسيء بالطبع إلى النمو السليم للطفل.

2 ــ العوامل الاجتماعية والثقافية

تلعب هذه العوامل دوراً هاماً في النمو الفكري للطفل. وتؤثر لاحقاً على تعلم اللغة والعادات وطرق التفكير والقيم الأخلاقية والاجتماعية عند الطفل.

3 ــ العوامل الظرفية

إن الإصابات العقلية والحركية والحسية والإعاقات المختلفة سوف تضعف نمو الطفل.

كما أن الاضطرابات النفسانية سوف يكون لها دورها بالتأكيد ولكن يصعب الإحاطة بها بشكل دقيق.

الفصل الثالث

النظريات الرئيسية حول نمو الطفل

لقد قام العديد من المؤلفين وعلماء النفس والمحللين النفسيين والتربويين وأطباء الأطفال ببناء نظرياتهم حول النمو النفسي ـ الحركي والنمو النفساني للطفل.

لقد ترك هيروارد الطبيب الملحق بخدمة ابن الملك هنري الرابع نفسه (الذي أصبح الملك لويس الثالث عشر) يوميات كانت قد بدأت عام 1601[1] هي إحدى أولى الوثائق في الملاحظة العلمية للوعي عند الطفل.

إن معظم المؤلفين الذين درسوا النمو عند الطفل استعانوا في البدء بأولادهم أنفسهم فراقبوا نموهم باهتمام، وفي القرن التاسع عشر أي بعد خمسين سنة من عصر جان جاك روسّو[2] تمنت السيدة نيكير دو سوسور بحرارة على «الأمهات الصغيرات أن يسجلن بشكل دقيق نمو أطفالهن»[3]. إن «الدراسة حول النمو الأول لڤيكتور دو لاڤيرون» قد نشرت عام 1801 من قبل جان ـ مارك غاسبار إيتار الذي أسس ضمن الاتجاه نفسه العلاج النفسي للطفل والتربية المتخصصة[4]. إن تجربته هذه سوف يكون لها تأثيرها على علم نفس الطفل عن طريق التربية ولا تخفي ماريا مونتوسوري فضل هذا الطبيب عليها الذي جرى تكريمه في فيلم سينمائي لفرنسوا تروفو (الطفل المتوحش، 1970).

في عام 1847 أكد بوشيت على أهمية الملاحظة المباشرة واستخرج قواعد

---

(1) J. Heroard, Journal, Paris, Didot, 1868.

(2) Émile ou de l'Éducation, 1762.

(3) Mme Necker de Saussure, Éducation Progressive ou étude du cours de la vie, Paris, Garnier, 1828.

(4) R. Gineste, Victor de l'Aveyron, dernier enfant sauvage, premier enfant fou, Paris, Symacore, 1981.

النظرية الوراثية (الجينية). لقد انطلق علم نفس الطفل حوالي النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

لقد سجل داروين عام 1872 بفضل الملاحظة المركزة لنمو ابنه دودي وقائع شديدة الدقة[1]. إن مراقبة الطفل أمام المرآة أصبحت شهيرة واستعادها كل من فالون ولاكان ولكن مع تفسيرات مختلفة.

في عام 1878 قدم إ. إغير دراسة عن «نمو الذكاء والكلام عند الأطفال». وفي العام نفسه نشر تين ملاحظات عن اكتساب الكلام عند الأطفال والجنس البشري. في عام 1881 كتب سولي في انكلترا دراساته عن الطفولة كما أن العالم الفيزيولوجي الألماني بريير الذي راقب ابنه آكسيل استخرج دراسة تعتبر أثراً في المثابرة هي: «نفس الطفل».

بين السنوات 1878 و 1896 قدم برنار بيريز دراسة عن السنوات الأولى من الطفولة ونشرت له عدة أعمال[2]. في عام 1895 نشر الفيلسوف الأميركي بالدوين دراسة «النمو العقلي عند الطفل».

لقد نشرت بولين كيرغومار في منشورات ناتان كتاباً هو: الطفل بين سنتين و 6 سنوات، وفي منشورات هاشيت نشرت في العامين 1886 و 1895 كتابين مخصصين للتربية في صفوف الحضانة في المدارس.

في عام 1893 نشر غابريال كومبيري المفتش العام في التعليم الرسمي مؤلفاً بعنوان: التطور العقلي والأخلاقي عند الطفل (هاشيت). وقدم كيرا عام 1905 دراسة عن: اللعب عند الطفل. أما إدمون كراموسيل فقد نشر كتاباً عند ألكان عام 1909 هو: الوعي الفكري الأول عند الطفل، وعند كوندنغ: غفوة طفل صغير (1912) ثم عاد لينشر عند ألكان عام 1925 «أفكار فلسفية ونفسانية تجريبية»، ونشر بوتون عام 1914 كتاباً هو: الطريقتان عند الطفل.

---

(1) Esquisse du développement mental chez un jeune enfant, 1877.

(2) Les trois premières années de la vie (1878); l'éducation morale dès le berceau (1880); Tiedemann et la Science de l'enfant (1881); Mes deux chats (1881); L'enfant de 3 à 7 ans (1886); L'art et la poésie chez l'enfant (1888); Le caractère de l'enfant à l'homme (1881); L'éducation intellectuelle dès le berceau (1896).

لقد اهتم جورج هنري لوكيه بنوع خاص برسوم الأطفال[1] من خلال رسوم ابنته. كما اهتم جيمس مارك بالدوين (1861 ـ 1934) وهو فيلسوف وعالم نفس أميركي بعلم نفس الطفل ليتوصل من خلال ملاحظة الوظائف الفكرية عند الطفل إلى معرفة القوانين العامة التي تحكم تطور الجنس البشري. فظهر كتابه الرئيسي «النمو العقلي عند الطفل والجنس البشري» عام 1897.

الفرد بينيه (1857 ـ 1911) وهو عالم نفس اشتهر بنوع خاص لأعماله التي كانت في أساس قياسات الذكاء بطريقة الروائز. إنه أحد أهم كبار الأساتذة في علم نفس الطفل[2]. كما أن كتاباته العديدة أخذت أهمية كبيرة[3].

في عام 1914 ناقش أندريه كولان أطروحته عن النمو الحركي عند الطفل وقدم بشكل مفصل ملاحظاته حول الحركة العضلية للرضيع عام 1912 لجمعية طب الأطفال. وإدوار كلاباريد (1870 ـ 1940) وهو طبيب وعالم نفس اهتم كثيراً بعلوم التربية وحاول منذ عام 1900 تطبيق علم نفس التربية على الأطفال غير الطبيعيين. فاستخرج مبدأ «المدرسة حسب القياس» وأسس عام 1901 «محفوظات علم النفس». وكتب عدة مؤلفات[4]. فبالنسبة إليه كل أداء سواء كان فيزيولوجياً أو نفسانياً يعود إلى أسلوب في الانتظام الذاتي الذي يترجم «بتصحيح دائم لتوازن دائم الاختلال». فأعلن المبادىء الكبرى لعلم نفس الطفل على شكل «قوانين» هي:

---

(1) Les dessins d'un enfant, Etudes psychologiques, Paris, Alcan, 1913; Le dessin enfantin, Paris, Alcan, 1927.

(2) Les idées modernes sur les enfants, Paris, Flammarion, 1911 (1973); La mesure du dévoloppement de l'intelligence chez les jeunes enfants, Paris; Colin - Bourrelier, 1966 (avec Théodore Simon); Les enfants anormaux, Paris, Colin, 1907, Toulouse, Privat, 1978 (avec Th. Simon); Ecrits psychologiques et pédagogiques, Toulouse, Privat, 1974.

(3) G. Avanzini, Alfred Binet et la pédagogie scientifique, Paris, Vrin, 1969; G. Avanzini, Alfred Binet, in La psychologie de l'enfant en langue française, Toulouse, Privat, 1979.

(4) Psychologie de l'enfant et pédagogie expérimentale; Le développement mental - Les méthodes, Neuchâtel, Delachaux et Niestlé; Comment diagnostiquer les aptitudes de l'écolier? Paris, Flammarion, 1924; L'éducation fonctionnelle, Neuchâtel, Delachaux & Niestlé.

ـ «إن النشاط تستحثه بصورة دائمة الحاجة»؛

ـ «إن الاهتمام هو المبدأ الأساسي لكل نشاط عقلي»؛

ـ «إن اللعب يلبي قبل كل شيء حاجة النمو عند الطفل»؛

ـ «ينمو الطفل بشكل طبيعي مجتازاً عدداً من المراحل التي تتوالى بصورة منتظمة وثابتة. . » الخ[1].

نشر جان بورجاد (1883 ـ 1947) عدداً من المؤلفات المخصصة لعلم نفس الطفل[2] والتي تشكل استخلاصاً لما كانت عليه معرفة الطفل قبل عام 1940 [3]. لعب بيار بوفيه (1878 ـ 1965) دوراً لا يُستهان به في معرفة علم نفس الطفل[4]. فأسس عام 1912 مع كلاباريد معهد جان جاك روسّو وعام 1925 المكتب الدولي للتربية الذي أداره فيما بعد جان بياجيه. يجب أن نعطي أهمية خاصة من ضمن مؤلفاته لكتاب «الغريزة المحاربة ـ مسائل في علم النفس والتعليم (1919)». لقد اهتم آلان، واسمه الحقيقي هو إميل شارتييه (1868 ـ 1951) وهو فيلسوف، بعلم نفس الطفل والتربية[5] من جملة نشاطاته المتعددة. فبالنسبة إليه إن الرغبة في ملاحظة الطفل تهدد بتثبيته في طفولته وبعدم رؤية حاجته إلى النمو. فالطفل الذي نراقبه لا يعود هو نفسه بل يلعب الدور إما لشعوره بالخجل أو لمحاولته الشيطنة عمداً. فينصح آلان «بتثقيف الطفل لكي نعرفه» بدلاً من أن نعرفه

---

(1) P. Artemenko, Edouard Claparède, in La Psychologie de l'enfant en langue française, Toulouse, Privat, 1979.

(2) Essai d'interprétation psycho-pédagogique des formes enfantines de l'explication causale chez quelques écoliers, Paris, Alcan, 1927; L'intelligene et la pensée de l'enfant, Paris, Alcan, 1937; Études de psychologie de l'enfant, Paris, Société d'édition «Les Belles Lettres», 1962; Principes de caractérologie, Neuchâtel, Éditions de la Baconnière, 1955.

(3) P. Artemenko, Jean Bourjade, ibid.

(4) H. Gratiot-Alphandéry, Pierre Bovet, in La psychologie de l'enfant en langue française, Toulouse, Privat, 1979.

(5) Propos sur l'éducation, Paris, PUF, 1932; Esquisses I, pédagogie enfantine, Paris, PUF, 1963; Esquisses IV Dialectique des sentiments, Paris, PUF. 1973; G. Pascal, Alain, éducateur, Paris, PUF, 1964; O. Reboul L'éducation selon Alain, Paris, Vrin, 1974; O. Reboul, Alain, in La psychologie de l'enfant en langue française, Toulouse, Privat, 1979.

لتثقفه: «فبتعليمه الغناء أعرف ما إذا كان موسيقياً».

بول غيوم (1878 ـ 1962) ناقش أطروحته حول: التقليد عند الطفل عام 1925 سابقاً بكثير أبحاث بياجيه وفالون[1]. فركز على أن «مفهوم نظام ظهور الوقائع هو أكثر أهمية من مفهوم العمر المطلق»[2].

أندريه ري (1906 ـ 1965) وهو عالم نفسي للأطفال وعيادي كان مساعداً سابقاً لكلاباريد لم يلق الاهتمام الذي يستحقه[3]. موريس دبيس[4] وجان شاتو[5] وفيليب ماريو[6]، إيليان ڤوربيو[7]، إيڤيت هاتويل[8]، بول أسوتيرييت[9]، بيار

---

(1) J. Chateau, Paul Guillaume, in La psychologie de l'enfant en langue française, Toulouse, Privat, 1979.

(2) Manuel de psychologie, Paris, PUF, 1932; Psychologie de la forme, Paris, Flammarion, 1937; Introduction à la psychologie, Paris, Vrin, 1946.

(3) P. Osterrieth, André Rey, in La psychologie de l'enfant en langue française, Toulouse, Privat, 1979.

(4) Psychologie de l'enfant de la naissance à l'adobescence, Paris, Colin, 1956.

(5) Le jeu de l'enfant après 3 ans, Paris, Vrin, 1947; Le jeu de l'enfant, Paris, Éditions du Scarobée, 1950; L'enfant et ses conquêtes, Paris, Vrin, 1960; Montaigne psychologue et pédagogue, Paris, Vrin, 1946; Du pied au bon sens, Paris, Vrin, 1968; Le malaise de la psychologie, Paris, Flammarion, 1972; Les sources de l'imaginaire, Paris, Delarge, 1972; Psychologie des attitudes intellectuelles, Paris, Vrin, 1976; P. Cazayus, Jean chateau, une pscychologie dynamique de l'enfant in La psychologie de l'enfant en langue française, Toulouse, Privat, 1979.

(6) La vie affective de l'enfant, Paris, Éditions du Scarabée, 1967; Les émotions et la personnalité de l'enfant, Paris, Vrin, 1967; La construction de l'imaginaire, Bruxelles, Dessart, 1967; Langage et représentation, in La Genèse de la parole, Paris, PUF, 1977; La socialisation, in Traité de psychologie de l'enfant, t.5, Paris, PUF, 1973; P. Artemenko, Philippe Malrieu, in La psychologie de l'enfant en langue française, Toulouse, Privat, 1979.

(7) Le monde visuel du jeune enfant, Paris, PUF, 1974.

(8) Privation sensorielle et intelligence, Paris, PUF, 1966.

(9) Faire des adultes, Bruxelles, Dessart, 1964; Introduction à la psychologie de l'enfant, Paris, PUF, 1957.

أوليرون[1]، مارك ريشال[2]، جان سيمون، جاك ڤيتڤير، فرنسوا بروسون، إندريه تابوريه ـ كيلير، جنڤييف سوناليت، موريس روشلان، بيار آرتومنكو، غي آڤنزيني، بول كازايوس، إيلين غراتيو ـ آلفنديري، أوليڤييه روبول، الخ. . . هم أسماء أخرى كبيرة في علم النفس الحديث والمعاصر سمحوا وما زالوا يسمحون بالاقتراب دائماً من معرفة إواليات التفكير والمنطق والعقل عند الطفل.

إن التوسع في كل هذه النظريات يستحيل ضمن إطار هذا الكتاب فعوضاً عن التوسع في نظرية واحدة اخترنا أن نضع نقاطاً رئيسية لأهمها كي يستطيع القارىء الذي يهتم بالموضوع أن يراجع المؤلفات الأصلية عنها. فالنظرة التي ينظر بها إلى الطفل كل من فرويد وبياجيه وفالون الخ ليست نفسها. والوقائع التي يشرِّحونها ويدرسونها ويحللونها ليست نفسها وكذلك التصرفات التي يصفونها ليست نفسها. إلاّ أنه يمكننا أن نبني انطلاقاً من مجمل هذه المؤلفات ومن تعارضها وتلاقيها نظرة توليفية عن التطور من حالة الطفولة إلى حالة النضج.

I ــ علماء نفس النمو

إن «علم النفس التكويني»[3] يدرس النمو الفكري والأخلاقي والاجتماعي للطفل دون أن يدخل تفسيرات «في العمق»، كما يفعل التحليل النفسي ولكنه يقوم بذلك بدقة شديدة في الملاحظة.

(1) Recherches sur le développement mental des sourds - muets, Bruxelles, Dessart, 1972; Langage et développement mental, Paris, Dessart 1972; L'éducation des enfants physiquement handicapés (1976); L'acquisition du langage, in Traité de psychologie, Paris, PUF, 1976; Les sourds - muets, Paris, PUF, 1969.

(2) Manuel de psychologie avec R. Droz; L'acquisition du langage, Bruxelles, Dessart, 1971; Pourquoi les psychologues? Bruxelles, Dessart, 1968.

(3) إن علم نفس التكويني يعني علم نفس الطفل. إن هذه التسمية أدخلت خلطاً بين «الجينة» (الوراثة) و«التكوين» (النمو). فمن المفضل استخدام تعبير علم نفس النمو للدلالة على العلم الذي يعالج تطور الطفل في كل أبعاده العاطفية والفكرية أو الاجتماعية.

1 ــ هنري فالون (1879 ـ 1962)

حياته.ـ هو فيلسوف، وعالم نفس[1] وطبيب أعصاب وأمراض عقلية وتربوي ورجل سياسة فرنسي. وهو دكتور في الآداب كانت أطروحته حول الولد الورش (1935)، أنشأ مختبراً لعلم النفس البيولوجي للطفل وكان مديراً لمعهد علم النفس في جامعة باريس. أسس عام 1948 مجلة «الطفولة».

نظرياته.ـ رفض فالون الأيديولوجيا البورجوازية المتمثلة بنظره في علم النفس الماورائي الفرويدي واستلهم من «المادية الجدلية» ومن ملاحظاته العيادية ما وصف به نمو الطفل[2]. وقد صنفت أعماله على أنها علم نفس بيولوجي تكويني ومقارن وجدلي ومادي في الوقت نفسه. إن الفكرة المركزية عنده تقوم، بصورة رئيسية، على مقارنة المراحل الحركية والعقلية عند الطفل الطبيعي والانقطاع والقصور الوظيفي عند الطفل المعاق.

وهو، على عكس بياجيه الذي يعتبر أن كل مرحلة من مراحل النمو يجب أن يبلغها الطفل على جميع الأصعدة قبل أن تبدأ مرحلة جديدة، لا يصف

---

(1) أهم الكتب هي: L'enfant turbulent (1925); Des origines du caractère chez l'enfant, Paris, PUF (1934); L'évolution psychologique de l'enfant (1941), Paris; A. Colin, coll. «U2», n° 38; De l'acte à la pensée, Paris, Flammarion, 1942; Les origines de la pensée chez l'enfant, Paris, PUF, (1945).

(2) Hommage à Henri Wallon (numéro spécial de l'Évolution psychologique, Janvier - mars 1962); Les conceptions psychobiologiques de H. Wallon par M. Bergeron, Psychiatrie de l'enfant, 1963, VI, 2, 539 - 562; H. Gratiot - Alphandéry Lecture d'H. Wallon, Paris, Éditions Sociales; René Zazzo, Psychologie et marxisme, la vie et l'oeuvre d'Henri Wallon, Paris, Denoël - Gonthier, 1979; Enfance, numéro spécial: Ecrits et souvenirs de Henri Wallon, 1968; Henri Wallon Ph. Malrieu, in La psychologie de l'enfant en langue française, Toulouse, Privat, 1979.

«مراحل» محددة ذات مستويات. بل يفترض أن المراحل تتقاطع وتتداخل بطريقة معقدة، متقطعة، تعترضها الأزمات (المعارضة، المراهقة، الخ..) والنزاعات والتحولات. فالمرور من مرحلة إلى أخرى ليس مجرد تضخيم بل هو تعديل، إنه تحول مفاجىء يؤدي إلى تنازع واختيار بين نمط من النشاط القديم وآخر جديد. فبالنسبة إلى فالون، كل مرحلة «من ناحية تغوص في الماضي، ولكن من ناحية ثانية تندفع نحو المستقبل». فهو إذن يعطي أهمية لتداخل العوامل البيولوجية (نضج الجهاز العصبي) والاجتماعية في النمو النفساني.

إن نظرية من هذا النوع جديرة بإفهامنا التعقيد والدينامية في نمو الطفل ولكنها لا تسهل تحديد مراحل العمر.

وهكذا يمكن وضع رسم أولي لنمو الطفل عند فالون بالشكل التالي:

قبل ستة أشهر: المرحلة الاندفاعية الصرفة:

إنها مرحلة النشاط الحركي الارتكاسي يرافقها تكيف اجتماعي تدريجي للإجابات الحركية وتخبُّط عشوائي أثناء الانفعالات. إن الحياة النفسانية للرضيع تترجم بحركات غير منسّقة وليس لها هدف خارجي. ولا يمكن أن يحدث تطور إلاّ من خلال العلاقة الجدلية بين العوامل العصبية البيولوجية للنضج والعوامل الاجتماعية العلائقية (دور المحيط العائلي) الذي يلعب دور الوسيط بين الجانب الفيزيولوجي والجانب النفساني.

لم أستطع يوماً أن أفصل البيولوجي عن الاجتماعي ليس لاعتقادي أنه لا يمكن أن يحل الواحد منها مكان الآخر بل لأنني أجدها عند الإنسان تتكامل بقوة منذ الولادة بحيث يصبح من المستحيل تصور الحياة النفسية تتخذ شكلاً آخر سوى شكل العلاقات المتبادلة فيما بينها.

من ستة أشهر إلى 12 شهراً: المرحلة الانفعالية:

إنها مرحلة الاندماج العاطفي، والتعبير الانفعالي (لغة الطفل البدائية) والتعرف إلى الذات في المرآة. إن نضج الجهاز العصبي يبقى بسيطاً غير أن العلاقات الإنسانية تسمح بتحسين وسائل التعبير.

من 12 شهراً حتى 24 شهراً: المرحلة الحسية ـ الحركية:

إنها مرحلة ظهور ردات الفعل الدائرية، والمشي والكلام. فالطفل يتنقل ويكتشف العالم المحيط به. ويمسك الأشياء ويتعرف إليها. ويبدأ الذكاء العملي أو فهم المواقف بالظهور.

إن المرحلة التي تلي المرحلة الانفعالية والتي تبدأ حوالي نهاية السنة الأولى أو بداية السنة الثانية هي على العكس متجهة نحو العالم الخارجي. فيمكننا القول إنها يقظة حركة الارتكاس التي يسميها باڤلوف «ارتكاس التوجيه أو التحقيق». فالطفل يستجيب بحركات موجهة للتأثيرات التي تحدثها الأشياء في نفسه.

عمر السنتين: المرحلة الإسقاطية:

إنها مرحلة التخليط المتميز. فالحركة تستحث النشاط العقلي. فالطفل يمر بمرحلة التقليد والتخيل ومن ثم يصبح قادراً على تذكر حدث أو شيء غير موجود!! فالطفل يبدأ بفهم الوظيفة الرمزية واللغة هي الشكل الأكثر تنظيماً.

ابتداءً من عمر سنتين ونصف: مرحلة الشخصانية:

ثلاثة سنوات: مرحلة المعارضة، والسلبية، وردة الفعل المترفعة (النرجسية)، مراحل التقليد، ألعاب التعاقب من السلبية إلى النشاط.

4 و 5 سنوات: مرحلة التدلل والاندماج والتبعية ضمن الإطار العائلي.

6 سنوات: مرحلة الشخصية ذات الأبعاد المتعددة: ألعاب جماعية، أدوار ضمن الجماعة.

2 ــ أرنولد جيزيل (1880 ـ 1961) ومعاونوه
(فرنس ل. إلغ، لويز بات آم)

لقد كان جيزيل وهو طبيب ومدير عيادة نمو الطفل (في يال، الولايات المتحدة) أول عالم نفسي درس بواسطة كاميرا سينمائية نمو الطفل منذ الولادة حتى عمر ستة عشر سنة (1924). لقد ربط التصرفات التي كان يراقبها بدرجة نضج

الجهاز العصبي المركزي[1]. حرص جيزيل، بالإضافة إلى دراسة النمو الحركي العفوي، على متابعة تطور الاستجابات في بعض المواقف، مثلاً: ردة فعل المولود حديثاً المستلقي على بطنه. وهكذا أقام جردة عامة عن النمو تسمح بتقييم معدل النمو (رائز الأطفال) الذي قامت أوديت برونيه وإيرين ليزين بتطبيقه في فرنسا.

إن الوصف ينصب على هذا الجانب أو ذاك: الحركية، اللغة، التكيف، ردات الفعل الاجتماعية، أو يكون موضوعه هو استعراض يوم كامل في سن معين.

يأخذ سُلَّم جيزيل أهمية تربوية كبيرة. وقد قام بتطويره كل من أندريه توماس وسانت آن دارغاسيس. إن احترام الشخصية الخاصة بالطفل هو أساسي في أعمال جيزيل.

إن معاوني جيزيل، فرنس إلغ ولويز بات آم، أسَّسا قواعد «علم النفس التكويني»، وهي طريقة تسمح ليس فقط بوصف الأشكال المختلفة للنفسية ولكن بدرس مظاهرها وتتابعها بنوع خاص. فقد برهنت هاتان الباحثتان أن الدراسات التكوينية يجب أن تأخذ بعين الاعتبار الخصائص الفردية والشروط الفردية للتكيف مع الوسط!.

يتفق الجميع على الإقرار بصورة عامة بوجود ثلاثة عوامل تعتبر أكثر أهمية من سواها يمكن تقييمها وتسمح بفهم سلوك طفل ما في ظرف ما وهي مستوى ومرحلة نموه، وشخصيته الفطرية وطريقة تكيفه مع الوسط.

---

(1) Embryology of Behavior, New York, Harper & Row, 1915; Atlas of infant behavior, Yale, Yale University Press, 1934, traduit en français par Irène Lézine; Infant and child in the culture of Today, New York, Harper & Row, 1945; Le jeune enfant dans la civilisation moderne, Paris, PUF, 1988; L'embryologie du comportement, Paris, PUF, 1945; L'enfant de 5 à 10 ans, Paris, PUF, 4e éd; 1963; L'adolescent de 10 à 16 ans, Paris, PUF, 4e éd; 1973..

3 ــ جان بياجيه (1896 ـ 1980)

حياته.ـ هو فيلسوف وعالم نفس سويسري، اهتم في البداية بالميكانيك، والعصافير، والأصداف والمتحجرات. ثم أخذ فيما بعد بعلم النفس والمنطق والمنهجية العلمية. عمل في باريس مع بينيه ولالاند على إنجاز روائز الذكاء ثم سعى إلى صياغة تصور عن تكون الذكاء أو مراحل تشكل الذكاء. عارض فالون عندما أكد على الطابع المتوالي لنمو الطفل معتبراً أنه يسير باتجاه «الاجتماعية التدريجية لفكر فردي يقاوم في البدء التكيف الاجتماعي، ثم يتطبع شيئاً فشيئاً بالتأثيرات المحيطة به من قبل الكبار». أصبح شهيراً في عام 1923 عندما نشر أول كتبه عن لغة وفكر الطفل. وقد أعاد تنظيم المفاهيم الأساسية للنمو بشكل جذري انطلاقاً من ملاحظته للأطفال وقدم هذه المفاهيم على أنها مراحل تنطلق من الذكاء الحسي والحركي الأولي عند الرضيع وصولاً إلى الذكاء التجريدي الخاص بالمراهقة.

درَّس علم نفس الطفل في جامعة السوربون من العام 1952 إلى 1963 وأسس عام 1956 المركز الدولي للأبستيمولوجيا في كلية العلوم في جنيف. كما كتب عدة مؤلفات[1]. والمراسلات التي أقامها مع أنشتاين كانت شهيرة.

باربل انهلدر هي تلميذته ومعاونته الدائمة. تعتبر المحركة لمجموعة تعمل

---

(1) La naissance de l'intelligence chez l'enfant (1934), Neuchâtel, Delachaux & Niestlé, 1968; Six études de psychologie, Paris, Gallimard, Folio essais n° 71, 1987; Problèmes de psychologie génétique, Paris, Denoël, coll. «Médiations», no 95; Psychologie et pédagogie, Paris, Gallimard, Falio essais n° 91, 1988; Psychologie et épistémologie, Paris, PUF, 1968; Le comportement moteur de l'évolution, Bibliographie, Paris, Gallimard, coll. «Idées», n° 354; Mes idées. Propos recueillis par Richard Evans, Génève, Gonthier, «Médiations», n° 153; La psychologie de l'enfant, Paris PUF «Que sais-je?» n°369; La psychologie de l'intelligence, Paris, Colin, «U/ Prisme 32»; De la logique de l'enfant à la logique de l'adolescent (avec B. Inhelder), Paris, PUF; Le jugement et le raisonement chez l'enfant, Paris, Delachaux; Le développement des quantités chez l'enfant. Conservation et atomisme (avec B. Inhelder), Paris, Delachaux; Le développement da la notion de temps chez l'enfant, Paris, PUF; La causalité physique ches l'enfant, Paris, PUF; La représentation du montde chez l'enfant, Paris, PUF; La construction du réel chez l'enfant, Paris, Delachaux, 1963.

معه وتضم علماء نفس ورياضيين وبيولوجيين وفيزيائيين وعلماء منطق، الخ. . أسهمت في الأبحاث حول تطور الكميات عند الطفل، واكتسابه للثوابت (كتل الفخار، السكر في الماء، الخ)، وحول الصورة العقلية وتصور المساحات عند الطفل وتوصل المراهق إلى التفكير الشكلي، الخ.

نظرياته .ـ يعتبر جان بياجيه أحد مؤسسي علم نفس القرن العشرين.

وقد كتب عنه أنه يمثل بالنسبة إلى علم النفس المعرفي ما يمثله فرويد بالنسبة إلى علم النفس العاطفي. فهو مؤسس نظرية عامة تسمح بإعادة تنظيم المعرفة مع استيعاب وقائع جديدة. نجد عرضاً لطريقة بياجيه في مقدمة كتابه «تصور العالم عند الطفل». إنها ليست طريقة الملاحظة كما أنها ليست طريقة الروائز[1]. بل هي أن نجعل الطفل يتكلم بحيث يتخذ التحقيق النفساني شكل محادثة. فبالنسبة إليه، يمر فكر الطفل تدريجاً بمرحلة حسية ـ حركية (اكتساب مفهوم الموضوع الدائم حتى عمر سنتين) ثم ما قبل العملاتية (أنوي وإحيائي حتى عمر أربع سنوات)، ثم حدسية (على المستوى الحسي الحركي، ظهور انقلاب العمليات وظهور مفهوم المحافظة حتى سن سبع سنوات)، ثم عملانية ملموسة (عمليات معقدة تتناول الأشياء حتى سن 11 سنة)، وصولاً إلى مرحلة التوازن النهائي بين 11 و 14 سنة وهي مرحلة التصرفات الفكرية العليا. إن نظريته العامة عن النمو النفساني تعارض بنيانية لاكان أو نظريات فلسفة الأفكار الفطروية لنوام

---

(1) J. Piaget par Michel Gressot, Psychiatrie de l'enfant, 1961, IVI; Psychologie et épistémologie génétique, thèmes piagétiens, Paris, Dunod, 1971; R. Droz et M. Dalimy, Pour lire Piaget, Bruxelles, Mardaga, 1992; J.M. Dolle, Pour comprendre Piaget, Toulouse, Privat, 1974; D. Cohen, Piaget, une remise en question, Paris, Retz, 1992; J. Montangero, Piaget ou l'intelligence en marche, Paris, Retz, 1994; R. Zazzo, Le Maitre de Genève et la psychologie de l'enfant, Le Quotidien de Paris du 23 septembre 1980; R. Zazzo, Piaget - Wallon: un dialogue difficile, Les Nouvelles littérairés du 25 septembre 1980; Un Piaget méconnu, in l'Évolution psychiatrique, t. XLV, Fasc. IV, 1980, Toulouse, Privat; Le débat entre J. Piaget et N. Chomsky, théorie du langage, théorie de l'apprentissage, Paris, Seuil, «Points», 1979; J.-C. Bringuier, Conversations Libres avec Jean Piaget, Paris, R. Laffont, 1977; Jean Piaget, J. Wittwer, in La psychologie de l'enfant en langue française, Toulouse, Privat, 1979.

شومسكي[1] وقد شهد على ذلك الجدل الشهير في روايومون عام 1975.

تركز الناحية النظرية التي تنتج عن تحليلات بياجيه على الجانب التدريجي في بناء المعلومات. لقد وصف عالم النفس هذا حقله المعرفي[2] (الأبستمولوجيا) «بالبنائي» ويقصد بذلك التأكيد أن نتيجة أبحاثه تسمح بتصور النمو ليس كمجرد تراكم متواصل ومتتالٍ للمعلومات بل بالأحرى كبناء لبنيات متفاقمة التعقيد.

درس بياجيه تصرفات الرضع بادئاً بمراقبة أطفاله أنفسهم وطارحاً على نفسه ثلاثة أسئلة:

- ما هو الفارق النوعي الموجود بين فكر الطفل وفكر الراشد؟.
- ما هي نظرة الطفل إلى العالم وكيف يفسر الظواهر؟.
- ما هي التسلسلات التي تقود من بنية فكرية إلى أخرى؟.

بالنسبة إلى عالم النفس ليس الذكاء سوى حالة خاصة من التكيف البيولوجي وهو يتطور وفق مراحل. إن سن المرور من مرحلة إلى أخرى يتغير حسب الأطفال ولكن انتظام المراحل ثابت. إنه يلتقي هنا مع أدوار كلاباريد الذي عرّف هو أيضاً «قانون التتابع التكويني» قائلاً: «إن الطفل يتطور بشكل طبيعي بمروره بعدد معين من المراحل التي تتوالى حسب نظام ثابت».

مرحلة الذكاء الحسي ـ الحركي

يعني بياجيه بهذا التعبير سلسلة كاملة من القدرات التي تختلف عن الذكاء المعروف «بالذكاء العالي». هذه المرحلة تسمح بتنمية ذكاء يمكنه بناء العالم من خلال الإدراك والحركة وإنجاز تصنيفات «عملية» لتصور العالم. إن المكتسبين

---

(1) آفرام نوام شومسكي ولد عام 1928 وهو مخترع القواعد التكوينية. يؤكد على أنه بالرغم من الاختلاف الظاهر بين لغات العالم العديدة إلاّ أن هناك بنية عالمية وعناصر ثابتة في اللغة. ويعتبر أن اكتساب التكلم لا يتم بواسطة التعلم. إن الطفل يملك ترميزاً عالمياً بصورة فطرية يحمله رسم تكويني لم يكتشف بعد (أفكار حول اللغة، باريس، فلاماريون، 1981).

(2) هذه الكلمة التي وضعها الفيلسوف الإيكوسي جيمس فيريه تعني: «الدراسة النقدية للعلوم». وقد عرفها بياجيه بأنها «دراسة تكون المعارف المحققة».

الأساسيين لهذه المرحلة هما ديمومة الأشياء عندما يصبح الطفل قادراً على تصور وجود وتنقل شيء ما قد اختفى من حقله البصري؛ وتنظيم المساحة بحيث يسمح للطفل بتنظيم تنقلات جسده.

ـــ من صفر إلى شهر: إنها مرحلة تمرين الارتكاسات. إن المولود الحديث يرضع من ثدي الأم بفضل ارتكاس المص. وبين الرضعة والأخرى يمص أصابعه، أو الشراشف أو غطاءه، الخ. وبسرعة شديدة ما أن يجوع الطفل حتى يرفض كل الأشياء التي يمصها عادة سوى الثدي أو مصاصة الرضاعة. فيستنتج بياجيه من ذلك أن الحلمة هي ذات دلالة بالنسبة إلى الطفل: مص الحلمة + الإحساس باللبن ـ الحليب المتدفق = سكون الإحساس بالجوع.

ـــ من شهر إلى أربعة أشهر: إنها مرحلة العادات الأولى (ردات الفعل الدائرية الأولى): تثبيت النظر والمتابعة البصرية، بداية إدراك يتعلق باللفظ والسمع، مقدمات الأخذ، بدايات استخدام اليدين، محاولة التنسيق بين المص والالتقاط، والتنسيق بين البصر والالتقاط. . . إن الرضيع يحاول الإمساك بما يراه ولكنه لا يبحث عن هذا الشيء عندما يختفي؟.

ـــ من أربعة إلى ثمانية أشهر: إنها مرحلة التكيف الحسي ـ الحركي القصدي مع ردات الفعل الدائرية الثانوية والتي تسمح بظهور القصدية على مستوى تصرفات الطفل. إن الطفل يبحث عن الشيء المخبأ أولاً بدون إلحاح ثم تدريجاً يزداد اهتمامه بلعبة الغميضة.

ـــ من ثمانية إلى اثني عشر شهراً: إنها مرحلة تنسيق الصميمات الثانوية وتطبيقها على الوضعيات الجديدة. فالطفل يبدأ بالتأثير على محيطه.

ـــ من 12 إلى 18 شهراً: إنها مرحلة اكتشاف الوسائل الجديدة عن طريق الاختبار الفاعل. فظهور ردات الفعل الدائرية الثالثة تجعل تصرف الطفل غير متوقع بالنسبة إلى المراقب. فالطفل يتصرف ويتلاعب بالوضعيات. فالطفل بإمكانه إذا أراد التقاط شيئاً ما أن يجذب نحوه شيئاً آخر يحمل ما يريد التقاطه.

ـــ من 18 إلى 24 شهراً: يخترع الطفل في هذه المرحلة أنظمة جديدة بواسطة الدمج العقلي. في عمر سنتين يبرهن الطفل عن ذكاء عملي شديد التطور.

المرحلة ما قبل ـ العملياتية (2 إلى 7 سنوات):

إن تصرفات التقليد والتمثيل تتطور تدريجاً. بين ثلاث وسبع سنوات تصبح الألعاب الرمزية وسائل تكيف فكرية بقدر ما هي عاطفية. فالطفل يقلد الكبار ويختبر الأشياء. فهو يمسك ويتذوق ويهز ويلقي بكل الأشياء التي تقع تحت يده كي يتعرف إليها. فهو منقب ذو فضول مشروع لذلك يجب ألاّ نمنعه من أن يلمس كل الأشياء.

إن البدء بالتكلم يسمح لبياجيه بدراسة المنطق الطفولي وباكتشاف أن فكر الطفل هو أنوي. فنظرته إلى العالم يراها دائماً من خلال نفسه. إن الأنوية أو الاتجاه الطبيعي لإعادة كل شيء إلى ذات الطفل ليست الأنانية. فهي ليست عيباً أخلاقياً بل هي مرحلة طبيعية من النمو.

هذه الأنوية نجدها على ثلاثة أصعدة:

ـ الأنوية الأخلاقية: كحالة الولد البكر الذي يصبح غيوراً عندما يأتيه أخ أو أخت.

ـ الأنوية الاجتماعية: كحالة الولد الذي يؤدي رقصة في مدرسة الحضانة ثم يترك رفاقه والرقص لينظر إلى الجمهور دون أن يتأثر بما يفكر به المشاهدون. إن «فظاظة» الأطفال في هذا العمر ليس سببها سوء الأخلاق بالضرورة بل هي جهلهم الطبيعي للآخرين.

ـ الأنوية الفكرية: لقد اكتشف بياجيه لدى سماعه أطفالاً يتكلمون معاً أنه في معظم الأحيان ليس هناك تبادل للأفكار بل أنواع من «الحوار الفردي (مونولوج) الجماعي».

إن مفهوم «التخليط» يشكل أداة مناسبة تسمح باطلاعنا على الطابع الذي يميز معظم مظاهر النفسية الطفولية: «كل شيء متصل بكل شيء»: فالطفل يجد دائماً سبباً لكل شيء، مهما كانت المسألة. فخصوبة الفرضيات عنده مذهلة. إن فكرة «الصدفة» غائبة عن تفكير الطفل قبل عمر 7 أو 8 سنوات. فالطفل يعرّف بشكل عام الأشياء حسب استعمالها:

ما هي السيارة؟ «كي نذهب بسرعة»؛

ما هي الأم؟ «كي تصنع الطعام»؛

ما هي الدراجة؟ «كي نتسابق بها»، الخ.

إن هذا النوع من الإجابات يفسر «العمومية» أو الفكر «التخليطي»: فالطفل لا يقوم بالتحليل.

فالتخليط هو الاتجاه العفوي عند الأطفال للإدراك حسب رؤيات عامة بدلاً من تمييز التفاصيل، ولإيجاد تشابهات بين أشياء وأسماء غريب بعضها عن بعض سريعاً وبدون تحليل، وللربط بين ظواهر طبيعية مختلفة بعضها عن بعض، ولإيجاد سبب لكل حدث حتى إذا كان عبثياً، وباختصار التخليط هو الاتجاه لربط كل شيء بكل شيء (...).

مثلاً على ذلك هذا الرائز لبورث (Burt) الذي يثير مصاعب لا يمكن تجاوزها: «إذا كان لدي أكثر من فرنك أذهب إما بالتاكسي أو بالقطار. إذا أمطرت، أذهب إما بالقطار أو بالباص. بالنتيجة السماء تمطر وأنا أملك عشرة فرنكات. كيف سأذهب باعتقادك!».

إن الطفل لا يستطيع أن يعزل الشرطين أحدهما عن الآخر. فبما أننا نذهب بالقطار أو بالباص إذا أمطرت سنذهب إذن بالتاكسي أو بالقطار إذا لم تمطر. هذه هي قناعته. من هنا يعتقد معظم الأولاد أنه سنذهب بالباص بما أن القطار موجود في صيغتي الاحتمالين وبما أنه يرتبط بشرط «الطقس الجيد». فالتخليط إذن يمنع التحليل والتفكير الاستنتاجي. ونرى كذلك في هذا الحالة أن التخليط يفسر عدم قدرة الطفل على المضاعفة المنطقية واتجاهه لاستبدال التوليف بالتراصف (...). إن التخليط يترافق مع اتجاه الطفل لتبرير كل شيء بأي ثمن. فهو يجد مبرراً لأي شيء.

إن الطفل هو «إحيائي» ويعتبر أن كل ما يتحرك فيه حياة، والأشياء عندها أرواح: والشمس والقمر تملك وجهاً، والغيوم تمشي، والطائرة في السماء، والظل يلحقه، الخ...

فالإحيائية الطفولية تعطي كل شيء نشاطاً هادفاً وواعياً، وتعير الأشياء أهدافاً أخلاقية وتضعها في خدمة الإنسان. فالإحيائية هي إذن جهاز احتياطي من المعتقدات يملي تفسيراً اصطناعياً ونفعياً للعالم.

إن فكر الطفل ينطلق من عدم التفريق بين الأجسام الحية والأجسام الجامدة، بسبب عدم امتلاكه معياراً للقيام بمثل هذا التفريق. بالنسبة إلينا أو بالأحرى بالنسبة إلى الحس العام عند الكبار هناك معياران يسمحان بهذا التفريق:

أولاً: إن الأجسام الحية تولد وتنمو وتموت. ولكن ما يلفت النظر أن الأطفال الذين رأيناهم لم يشيروا أبداً إلى هذه الواقعة. في الحقيقة، كان بعضهم يقول إن النباتات «تنمو» ولكن بالنسبة إليهم هي طريقة في التعبير عن تصورهم بأنها تتحرك بحركة ذاتية وبالتالي حركة النمو هذه كانت توضع على المستوى نفسه لحركة الغيوم أو الكواكب. بل أكثر من ذلك فسوف تظهر لنا دراسة الاصطناعية الطفولية أنه بالنسبة إلى الطفل كل الأجسام تقريباً تولد وتكبر: الكواكب «تولد» و «تكبر»، الجبال، الحجارة، الحديد «ينمو»، الخ. كما تبرهن الوقائع على أن نمط ظهور ونمو الأجسام لا يفيد الطفل كمقياس للتمييز بين ما هو حي وما هو جامد. فعلى هذا الأساس هناك تواصل كامل بين كل كائنات الطبيعة.

من ناحية ثانية، يستخدم الحس العام عند الكبار أيضاً مبدأ الثبات للتفريق بين الحياة والمادة غير العضوية وقد دخل هذا المبدأ أكثر فأكثر منذ مرحلة تطور الصناعة في عاداتنا الفكرية. فالجسم الفيزيائي لا يملك من الحركة سوى ما أخذه؛ بينما الكائن الحي يخلق الحركة. بالطبع هذا التمييز هو حديث جداً. فلا نعجب من أطفالنا الذين هم في الدرجة الثالثة (أي بالتحديد الذين يعرّفون الحياة بالحركة الخاصة بالأشياء) أن يكونوا ما زالوا غير قادرين على التفريق بين الحركة العفوية الظاهرية للكواكب، والهواء، الخ. وحركة الحيوانات (جان بياجيه، تصور العالم عند الطفل).

إن الطفل يحاول تفسير الظواهر التي لا يعرفها بنظرية تبدو له منطقية مثلاً:
من أين تأتي مياه الساقية؟ من الحنفية.

إن التفسيرات المنطقية التي تؤدي إلى ترابط الأسباب بالنتائج لا تعني له

شيئاً. فالطفل الذي يميز يمينه عن شماله لا يفهم أن الاتجاه ينقلب بالنسبة إلى الشخص الذي يقف بمواجهته. أما التجارب الأكثر شهرة عند بياجيه فهي التي تتناول التحولات. فالأطفال لا يمكنهم تصور احتفاظ الأشياء بخصائصها المادية خلال تحولها؛ إن فكرة عدم التغير هذه تنشأ تدريجاً. فعندما نفرغ سائلاً من كوب مرتفع ودقيق في وعاء واسع وغير عميق لا يفهم الطفل الذي يرى هذه العملية أن كمية السائل ما زالت نفسها. إذا قدمنا للطفل كرتين من المعجون الليّن متساويتين وغيّرنا شكل واحدة منها فهو لا يستطيع أن يرى تساوي الوزن أو الحجم.

إن فكر الطفل ينقصه الحركية فهو غير «قابل للانعكاس» مثل فكر الكبار الذي تتعدد عنده وجهات النظر إزاء وضع صعب وذلك وفق خطة منطقية مثل لاعب شطرنج جيد. أما الطفل فهو يعتمد على الصدفة.

فهو يجد صعوبات في تحكيم العقل: مثلاً على ذلك، نقدم للطفل أربعة أشكال: مربع، مستطيل، مثلث، ومستدير. ثم نخبىء المستدير وعلى الطفل دون أن ينظر أن يكتشف ما هو الشكل المخبأ عن طريق طرحه للأسئلة. فإذا سأل: هل هو المربع؟ كلا. هل هو المستطيل؟ كلا. هل هو المثلث؟ كلا.

رغم ذلك سوف يسأل السؤال الأخير رغم عدم نفعه: هل هو المستدير؟.

أما دراسة مفاهيم الوقت عند الطفل فقد أوحى بها لجان بياجيه آلبير أنشتاين. كيف يدرك الطفل الوقت؟ هل يحفظ بالضرورة الفوارق في العمر؟ هل الفرد الأصغر قادر على اللحاق بالزمن، بالأخ البكر؟ هل الفوارق في العمر تتطابق بالضرورة مع تسلسل الولادات؟ لقد برهن بياجيه أنه بالنسبة إلى الطفل إن الأخ الأكبر عمراً هو الأخ الأكبر جسماً. ففارق العمر بين أخوين يمكن أن يعوض أو حتى ينقلب في فكر الطفل إذا كان الأصغر «يأكل كثيراً من الحساء».

4 ــ إيرين ليزين (1909 ـ 1985)

حياتها.ـ إنها تلميذة فالون ومعاونة آجوريا غيرا، ورائدة في علم النفس و «علم الأطفال» والتربية في الطفولة الأولى. لقد كيّفت بناءً على طلب زازو روائز جيزيل لتتناسب مع الأطفال الفرنسيين وهكذا وضعت مع أوديت برونيه «روائز

الطفل» المعروف ببرونيه ـ ليزين.

أعمالها.ـ ترجمت مؤلفات جيزيل من عام 1949 إلى 1953. كانت مديرة أبحاث في المركز الوطني للأبحاث العلمية (CNRS) فأسست وقادت فريق أبحاث في جانتيي حول النمو الأول للطفل. وبفضل مساعدة العديد من الأطباء نالت عام 1956 الموافقة على خلق وظائف لعلماء النفس في دور الحضانة. كتبت عدة مؤلفات[1]. وعرفت الفرنسيين إلى مؤلفات السوفيات مثل المربي أنطون ماكارنكو. وقد بدأت في ملاحظاتها الأولى حول علاقات الأم بالرضيع من خلال الأمهات الشابات في مستشفى عمال المعادن حيث تطبق طريقة الولادة بدون ألم المستقدمة من الاتحاد السوفياتي من قبل لاماز. وقد برهنت أن الأسبوع الأول من الحياة المشتركة بين الأم والمولود الحديث هي مرحلة شديدة الزخم وملأى بالانفعالات العميقة. عملت مع فرنسواز كوكييه (Cukier) في بور ـ روايال في قسم البروفسور منكوفسكي حيث تابعت أبحاثها حول المولود قبل أوانه وحول العلاقات بين الأم والطفل خلال الأسابيع الأولى من الحياة.

5 ـــ رينيه زازو (ولد عام 1910)

عام 1945 ولد ابني الثاني. وبينما كنت أغيّر له، إذ في تلك الحقبة كان قد وجد آباء جدد. ولا أدري لماذا كنت أتسلى بمد لساني للطفل. وكان الولد يقلدني. أعيد الكرة. يعيد الكرة. وكنت أعرف بفضل بياجيه أن الطفل لا يستطيع أن يمد لسانه قبل ثلاثة أشهر. فحدثت فالون وبياجيه بالأمر. فأجاباني بأن ذلك مستحيل وطلبوا مني ألاَّ أنشر هذا الشيء كي لا يهزأ بي القرّاء. ولكي أقنعهم طلبت من إيرين ليزين أن تأتي مع صديقها لتصور المشهد وكنت خائفاً ألاَّ تجدد التجربة. وحصلت المعجزة وسار كل شيء على أفضل وجه ومدّ الطفل لسانه لي. فأريتهم الطفل. ولكنهم أصرّوا على أن هذا لا يدل على أي شيء. وخلال عشر سنوات كنا نطلب من معاونينا الحديثين في علم النفس الذين عندهم أولاد أن

---

(1) Le nourrisson, son évolution et son éducation, in Encyclopédie de la-psychologie, Paris, Nathan, 1962; Le développement psychologique de la prémière enfance, Paris, PUF, 1971, Problèmes quotidiens de l'éducation, Paris, PUF, 1964; Psychopédagogie du premier âge, Paris, PUF, 1974; Propos sur le jeune enfant, Paris, J.- P. Delarge, 1976.

يقوموا بالتجربة. واكتشفنا أن الطفل قادر على التقليد بعمر خمسة أو ستة أيام. فنشرت مقالاً حول الموضوع بعد عشر سنوات. كان نصيبه الإهمال العام. منذ ثلاث سنوات اكتشف برازلتون هذا الشيء.

حياته.ـ هو عالم نفس الطفولة، يهتم بالمسائل المدرسية عند الصغار وبالتوائم. بروفسور في علم نفس الطفل ومدير مختبر علم النفس البيولوجي للطفل في المدرسة العملية للدراسات العليا (EPDHE) حتى عام 1980. عمل مع بيار مال وجوليان أجوريا غيرا في مستشفى القديسة آن. وهو رئيس قسم في مستشفى هنري روسيل.

أعماله.ـ كان تلميذاً لفالون فدمج ما قدمه له ضمن فكر فريد يسمح بأن يكون منطلقاً لأبحاث عديدة[1]. فدراساته عن الذكاء وأصل السلوك والوعي تقارب معظم المسائل التي يطرحها الاختصاصي بعلم التربية. وأعماله عن التوائم أعادت تجديد دراسة التفاعلات بين الوراثة والمحيط في بناء الشخصية. إن دراساته في علم نفس التوائم برهنتها أبحاث متواصلة خلال خمس عشرة سنة على مجموعة من

(1) Psychologues et Psychologies d'Amérique, Paris, PUF, 1942; Intelligence et quotient d'âge, Paris, PUF, 1946; Le devenir de l'intelligence, Paris, PUF, 1946; Manuel de psychologie de l'enfant de L. Carmichaël, Paris, PUF, 1952; La psychologie scolaire (en collaboration) Paris, PUF, 1953; Manuel pour l'examen psychologique de l'enfant, 2 vol. Newchâtel, Delachaux & Niestlé, 1960; Les jumeaux, le couple et la personne, 2 vol. Paris, PUF, 1960; Conduites et conscience, Neuchâtel, Paris Delachaux & Niestlé, 1962 - 1968; Nouvelle échelle métrique de l'intelligence, 2 vol. Paris, Armand collin, 1966; Les débilités mentales, Paris, Armand Collin, 1969; Des garçons de 6 à 12 ans, Paris, PUF, 1969; Les débiles mentaux, in M. Reuchlin, Traité de psychologie appliquée, vol. 7, chap. 4, Paris, PUF, 1972; Traité de psychologie de l'enfant (avec H. Gratiot - Alphandéry), Paris, PUF, 1970 (6 vol. Parus); L'attachement, Neuchâtel, Delachaux & Niestlé, 1974; La genèse de la conscience de soi, in psychologie de la connaissance de soi, Paris, PUF, 1975; Psychologie et marxisme, la vie et l'œuvre d'Henri Wallon, Paris, Denoël - Gonthier, 1975; Image spéculaire, conscience de soi, in psychologie expérimentale et comparée, Paris, PUF, 1977; Où en est la psychologie de l'enfant, Paris, Denoël - Gonthier, coll. «Médiations», n°239, 1983; Le parodoxe des jumeaux précédés d'un dialogue avec Michel Tournier, 1984.

التوائم بمختلف الأعمار متشابهة من لاقحة واحدة أو غير متشابهة من لاقحات متعددة. إن هذا التحقيق يتميز بدقة علمية لا جدل فيها ويجمع بين الطريقة العيادية والاختبارية وطريقة الاستمارة. واستطاع بواسطة التوائم أن يدرس ظواهر التعلم وإواليات الوراثة وكذلك تأثير الزوجين. وسمحت لنا أبحاثه الأخيرة حول التخلف العقلي أن يستخلص ويوضح مفهوم الاختلاف الزمني في النمو.

6 ــ النظريات السلوكية، السلوكية المحدثة والارتكاسية

واطسن (1878 ــ 1958) هو مخترع «السلوكية»[1]. كانت أعماله الأولى مخصصة لدراسة سلوك الجرذان. قاد أبحاثه بدقة كبيرة وطبق على مجال الطفولة بعض المبادىء التي صاغها بعد أن لاحظ عند الحيوانات بدايات تصرفات ذكية. كما اهتم بنوع خاص بردات الفعل الأولى وبتطورها وفق إجابات المحيط. أعطى أهمية خلال عدة سنوات مع فينيكوت للدور المميز للموضوع الانتقالي ولكنه ما لبث أن رفضه باحتقار. كان يعتبر عالم النفس الأميركي هذا الذي أصبح في نهاية حياته إعلامياً أن كل تصرف هو نتيجة تعلم ثانوي لاشتراط ما. فهو مجموعة ارتكاسات اشتراطية دون تفاعل بين الشخص ومحيطه: هذه هي نظرية الإثارة ـ الإجابة. في عام 1937، وجد بوروس ف. سكينر هذه النظرية الارتكاسية تبسيطية واقترح بديلاً منها هو «نموذج الاشتراط العملي» انطلاقاً من تجارب جرت على الجرذان والحمام أيضاً.

7 ــ النظريات العصبية ـ الفيزيولوجية

لقد قدم كل من كوبرنيك وديلي عرضاً لهذه النظريات في كتاب النمو العصبي النفساني عند الرضيع (PUF - 1980). وعلينا أن نشير بين الأسماء الكبيرة التي جهدت في تحديد قواعد الأشكال الوظيفية في النمو إلى منكوفسكي

(1) J. Cottraux, Les thérapies comportementales, Paris, Masson, 1979; J. Hochmann, Aspect d'un scientisme: Les thérapies comportementales, Revue Française de Psychanalyse, 1980, 44, 3 - 4, 673; J. - F. Le Ny, Le conditionnement et l'apprentissage, PUF, 1958; P. Naville, La psychologie du comportement, Gallimard, 1963; J. Paulus, Le conditionnement et l'apprentissage, PUF, 1958; B.F. Skinner, Pour une science du comportement: le behaviorism, Neuchâtel, Delachaux & Niestlé, 1979.

(1938)، أندريه توماس وسانت آن دارغاسي، أ. پيير، م، ستامباك، الخ.

8 ــ برتون ل. وايت

إن منزلاً فائق الترتيب مع طفل عمره عشرة أشهر في فترة نموه هما شيئان لا يتفقان؛ إن منزلاً في حالة فوضى مع طفل في عمر العشرة أشهر هو مؤشر جيد!.

حياته.ــ هو مدير أبحاث في جامعة هارفرد (الولايات المتحدة) وقد ألف كتابين في أميركا كان لهما وقعهما في مجال نمو الولد الصغير. كما شكلت أعماله موضوعاً للعديد من مقالات المجلات والأفلام الوثائقية المخصصة للتلفزيون. كتابه: السنوات الثلاث الأولى من الحياة، هو من روائع القصص في الولايات المتحدة وجرت ترجمته إلى الفرنسية[1].

نظرياته.ــ إن معظم المكتسبات الخاصة التي يكتسبها الطفل خلال الأشهر الثمانية الأولى هي بالنسبة إلى وايت أوتوماتيكية، مهما كان موقف الوالدين نظراً إلى الحاجة إليها وإلى خصائص المحيط المتوسط البعد، فالنمو النفسي الحركي تؤمنه الطبيعة، والأخطاء التربوية على هذا الصعيد ليس لها أية نتائج. بل على العكس فهو بتقديره أنه ليس هناك أكثر من طفل واحد من أصل عشرة أطفال يمكنه أن يبلغ مستويات من القدرات التي يمكن أن يسمح له رصيده فقط ببلوغها خاصة على صعيد نمو اللغة، والفضول والانخراط الاجتماعي والبنية التحتية للذكاء عنده. فإذا ابتدأنا بالاهتمام بنمو الطفل عندما يبلغ السنتين نكون قد تأخرنا كثيراً خاصة على صعيد المواقف والاتجاهات الاجتماعية. فالطفل في عمر السنتين يكون بالفعل قد أصبح كائناً اجتماعياً كامل الصورة وشديد التعقيد. ويمكن أن نتوقع الطريقة التي سيتطور بها الطفل من خلال مراقبته في عمر الثمانية أشهر. إن الوتيرة التي يكتسب بها الرضع استعداداتهم خلال الأشهر الستة الأولى يمكن تسريعها بإثارة حماستهم وفضولهم. ويصر وايت على استحالة «إفساد» الرضيع قبل ثمانية أشهر ويحلل الأسباب التي تجعل وضع الأهل صعباً. فهناك بالدرجة الأولى الجهل فيعتبر وايت أن الأهل ليسوا مهيئين لتحمل مسؤولية تربية ولدهم الأول. فهناك الكثير من أشباه

(1) Les trois premières années de la vie, Paris, Buchet/ Chastel, 1978.

الحقائق التي تتضارب وتتعارض بحيث يصعب على الأهل الحديثين وغير المجربين أن يختاروا بينها. ويستنتج بأن أفضل النصائح هي التي تقدمها ربة أسرة كثيرة الأولاد ومتزنة وذكية. . . إن الجهل لا يفسر كل الأخطاء التربوية. فالوالدان قلقان ومضطربان ويخشيان أن يسيئا التصرف في حين أنهما يرغبان بالقيام بالمطلوب. هذا «الضغط» يزيد من تردد الأهل. كما أن وايت يركز كذلك على الصعوبات العلائقية في حالة صراع الأخوة عندما يكون هناك مشاعر غيرة وكره تجعل الجو في المنزل غير محمول. وأخيراً هناك مرحلة «المعارضة» أو «السلبية» التي تزيد من صعوبة مهمة الأم التي تجد نفسها بمواجهة عدة صعوبات. فبالنسبة إلى وايت أن التطور النفساني الذي يتم بين 8 و20 شهراً هو أهم مرحلة من الحياة وتحتاج أيضاً إلى الكثير من العناية.

إن الرضيع في عمر 8 أشهر يبرهن عن فضول شديد. هذا الفضول هو جد طبيعي حتى إن وايت ينصح باستشارة طبيب أطفال في حال كان الطفل بهذا العمر غير فضولي. فهو يزحف ويكتشف العالم وصولاً إلى المرحاض (W.C.) الذي يعجبه كثيراً. كما أن الطفل بهذا العمر يحب كثيراً السلالم: «كم هو مذهل ما لدرجات السلالم من تأثير جاذب على الأطفال الصغار». إن الطفل بين ثمانية أشهر وثلاث سنوات يقضي 20% من وقته الصاحي في مشاهدة الأشخاص والأشياء بانتباه. فيبدأ بفهم معنى بعض الكلمات ويتجاوب لدى سماع اسمه ويطيع بعض الأوامر البسيطة. في حوالي السنة يطلب الطفل من أمه أن تساعده وهذه الرغبة بالعناية هي مرحلة اجتماعية هامة. وهو يحب أن يلعب بالأشياء الصغيرة الحجم ويتسلى بتفريغ ومَلْء العلب بأشياء يضعها في فمه. وتجذبه المفصَّلات والأشياء ذات المفصلات: فالباب الذي يفتح ويغلق يسحره بكل معنى الكلمة. قفل الكهرباء الذي نضيء به ونطفىء الضوء يلهيه ساعات طويلة. ويحب كثيراً تقليب صفحات كتاب من كرتون. إن القلق والخجل من الناس الغرباء يظهر في هذه المرحلة. بين ثمانية أشهر و 24 شهراً يكون الولد في تبعية شديدة لأمه. إنه يتعلم منها ما هي حدوده. وعندما يبلغ السنتين يعقد معها «عقداً اجتماعياً» مفصلاً وشديد الإحكام.

فهو يعرف ما يحق له أن يفعله. كما يعرف ما لوالدته من سلطة وأي مدى

يمكنه أن يبلغ. إن الأهل معرضون في هذه المرحلة من عمر الطفل لأن يفرطوا في تدليله. فينصح وايت أن لا يتهاون الأهل إزاء «ثورات» الطفل. الطفل الثائر يتوقع من أهله أن يضعوا له الحدود المناسبة.

9 ـ بنجامان ماك لاين سبوك (ولد عام 1903)

إنه طبيب أطفال، وطبيب نفساني أميركي ذو شهرة عالمية وكان في السابق بطلاً في الألعاب الأولمبية في التجذيف في باريس عام 1928! ثم بعد أن ترك نشاطاته الرياضية وضع عام 1946 كتاباً يجمع فيه للأهل المعلومات المتعلقة بالعناية بالأطفال وبالأمراض وبعلم النفس بعنوان: كيف ننشىء الطفل ونعتني به؟ وقد بيع من كتابه 25 مليون نسخة وترجم إلى 30 لغة! ثم تبع هذا الكتاب عدة كتب تحت عناوين: دكتور سبوك يتكلم مع الأهل، دكتور سبوك يتكلم مع الأمهات. . .

فهذا الطبيب اكتشف بالحقيقة أن الشباب يملكون القليل من المعلومات عن مهنة الوالدين. وهذا الجهل يقود إلى عدم الثقة بالنفس، وإلى القلق وإلى أخطاء تربوية وسوء تفاهم تؤدي إلى الإساءة بسرعة إلى علاقة الطفل بأهله.

قدم سبوك في كتابه هذا الشامل على الصعيد الطبي والدقيق على صعيد التصرفات المطلوبة معلومات عن النمو وتبسيطاً للتحليل النفسي المتعلق بالنمو. فاستخدم أحاديث جمعها من الأهل الذين كانوا يقصدونه كطبيب أطفال وحرص على طمأنتهم حول كفاءتهم كأهل في مجال التربية وبأنهم يملكون من المعلومات أكثر مما يعتقدون. وفّق بين العاطفة والتسامح واحترام الشخصية فوجه إليه الاتهام في السبعينات بأنه يشجع الأهل على التسامح المطلق والانسحاب من العملية التربوية. ولكن هذا الاتهام بالنسبة إلى فيكتور شوفاليه وقد ترجم كتاب سبوك إلى الفرنسية يجب اعتباره «مجرد حلقة من سلسلة المطاردات التي لم تتخلَّ طبقة سياسية أميركية معينة عن استساغتها». في الحقيقة كان سبوك مدافعاً صلباً عن السلام ومناضلاً شهيراً بمواقفه ضد حرب فيتنام والبحث النووي. ولكنه كان مع ذلك يتأثر بالمجادلات، لذلك أشار في منشوراته الأخيرة إلى الحدود الضرورية التي يجب وضعها أمام رغبات الطفل اللامحدودة.

10 ــ ت. بري برازلتون (ولد عام 1920)

طبيب الأطفال الأميركي هذا ذو شهرة كبيرة في الولايات المتحدة وأوروبا. فكتبه[1] وبرامجه التلفزيونية معروفة جداً. ولدى مشاركته في البرنامج التلفزيوني: «الطفل هو شخص» لفت الانتباه إليه وخصصت العديد من المقالات الصحفية لهذا الموضوع. إن أبحاثه عن «قدرات» المولود الحديث جعلت منه رائداً في علم الأطفال. لقد بنى «سلماً لتقييم تصرفات المولودين حديثاً»، هو (Brazelton Neonatal Behavioral Assessment Scale) BNBAS يسمح بتقييم مختلف مظاهر قدرات المولود الحديث استناداً إلى 27 سؤالاً تتعلق بالتصرف وإلى فحص عصبي. هذا الرائز BNBAS يسمح بنوع خاص بتقييم عملية الاعتياد، وردة فعل التوجه نحو المثيرات الحية أو غير الحية، نوعية ومدة فترات الاستيقاظ الهادىء والمتنبه، النضج الحركي، الانعكاسات الوضعية (وضع الجسم) لدى الاحتكاك بالكبار، قدرة الانتظام الفردي وما بين الفردي، الخ. إن نتائج (BNBAS) هذا الرائز يصنف على أساس سلم ترقيم يستخدم في الولايات المتحدة وفي معظم الدول الأوروبية. هذا البروفسور في طب الأطفال في هارفرد يدير وحدة نمو الطفل في مستشفى الأطفال في بوسطن. من مواضيع اهتماماته التي كتب فيها أزمة الاستقلال العالمية عند الطفل بين سنة وثلاث سنوات والتي هي السنوات الأخيرة التي يستطيع الأهل أن يلعبوا وحدهم دوراً فيها. .

إن الأهل يفتخرون بشكل شخصي جداً وحتى نرجسي أمام كل تقدم جديد يظهر عند الطفل. فالطفل شديد الحساسية تجاه الضغط الشديد الذي يسود في الجو المحيط به. فهو بحاجة إلى أن نضع له حدوداً. إن الطفل «المدلل» هو كائن

---

(1) Infants and mothers (1969) traduit en 1971; «Votre bébé est unique au monde» chez Albin Michel puis remis à jour et publié en 1985 sous le titre: Trois bébés dans leur famille, Laura, Daniel et Louis, chez Stock/ Laurence Pernoud; Toddlers and Parents (1974) traduit en 1985; L'âge des premiers pas chez Payot; Écoutez votre enfant, Paris, Payot, coll. «Bien-être», 1985; La naissance d'une famille ou comment se tissent les biens? Stock/ Laurence Pernoud; Échelle d'évaluation du comportement néonatal, Neuropshychiatrie de l'enfant, 1983, 31, 2-3, 61-96.

فاقد للشخصية المبنية ويبحث عن أنماط من التنظيم لا يجدها في نفسه.

يعطي برازلتون أهمية كبيرة لمرحلة ما قبل الولادة ويوصي «بالعشر دقائق الشهيرة المخصصة للمقابلة ما قبل الولادة التي تعادل على الأقل اثنتي عشرة ساعة من الاستشارات بعد الولادة».

ويركز على أهمية أن يكلم الطبيب الأم عن تفاعلها مع طفلها سواء الخيالي منه أو الواقعي أثناء الحمل، وعلى أن يلفت انتباهها إلى قدرة الطفل على التبادل، ويشير إليها بكيفية التفاعل العاطفي والمساهمة الفاعلة.

11 ـ فيتزوغ دودسون

عرف هذا الكاتب الأميركي شهرة عالمية مع قصته الرائعة: «كل شيء يحصل قبل السنة السادسة». فهو يفسر في هذا الكتاب إواليات النمو عند الطفل قبل السادسة من العمر ويقترح مساعدة الطفل على العيش والتفكير وتطوير قدراته وشخصيته بما يتناسب مع مرحلة النمو التي تتفق مع عمره دون أي ضغط أو تسريع. وتبع[1] هذا الكتاب عدة كتب أخرى.

12 ـ هوبير مونتانييه

كان مديراً للمختبر النفسي ـ الفيزيولوجي في كلية العلوم في البيزونسون، واهتم بنوع خاص بوسائل الاتصال التي يستخدمها الأطفال الصغار فيما بينهم. قام بتصوير أفلام في دارين للحضانة (1970 ـ 1981) ما سمح له باكتشاف تصرفات الأطفال المختلفة التي جمعها في ست فئات هي: التقدمات، الالتماسات، التهديدات، الاعتداءات، أعمال المصادرة ومحاولات المصادرة، الانعزال والبكاء. هذه المعطيات السلوكية جرت معالجتها بواسطة التحليل العواملي والروائز الإحصائية[2].

بموازاة هذه الدراسة السلوكية تجري ابتداء من 1978 دراسة منهجية لبنية

(1) Le père et son enfant (Laffont); Aimer sans tout permettre (Laffont); Être grands - parents aujourd'hui (Laffont).

(2) H. Montagner, L'enfant et la communication, Stock, 1978 (coll. Laurence Pernoud).

ووظائف التركيبات الحركية التي تتضمن تصويتاً أو عدة تصويتات. إن تحليل الرسم البياني للتصويت (مجموعة الوتيرات، وتيرة الصوت، مدَّته، شكل النغمات المتوافقة) للأطفال بين ستة أشهر و 20 شهراً تدل على أنهم يستطيعون بصورة مبكرة ملاحظة الفرق بين مختلف فئات التصرفات عندما تصاحب هذه التصرفات التصويتات. فتظهر عندئذٍ على أنها ذات وظائف تنظيمية للنشاط الحركي والاتصال. قبل أن يبدأ الطفل بالمشي يقوم ببعض الأفعال التي يرافقها غالباً بعض التصويتات (تربيت، اختلاج اليدين والرجلين، الزحف، التنقل على القوائم الأربع). إنها المرحلة التي يكتشف فيها الأطفال خصائص المحيط الذي يعيشون فيه ويكتشفون قدراتهم الحركية والصوتية الخاصة.

لقد دفعت هذه التحليلات مونتانييه إلى التأكيد أنه بالنسبة إلى الأطفال الذين هم دون سن 15 شهراً «تضيف الأصوات معنى» للتركيبات الإيمائية، والوضعيات، والحركات واللمسات. كما برهن عن الدور الأساسي لتصرف العائلة في التمييز بين أشكال التصرف الأكثر عدوانية عند الأطفال بين السنتين والثلاث سنوات رغم إقراره بالدور الذي يعود لتصرفات المربين، والظروف المعيشة والمحيط الطبيعي والاجتماعي.

II ــ المحللـون النفسيـون

لقد طور هؤلاء تحليل الطفل. وسوف نرى بشكل مختصر حياة وأعمال ونظريات سيغموند فرويد وميلاني كلاين وآنا فرويد ورينيه سبيتز وبولبي ودوالد ڤ. ڤينيكوت ودولتو وبتلهايم كما سوف نشير في هذا الفصل الواسع والمشوِّق إلى بعض الأسماء الأخرى الهامة.

1 ــ سيغموند فرويد (1856 ـ 1939)

حياته. ــ ولد في 6 أيار عام 1856 في فريبرغ في مورافيا. استقر أهله في فيينا حيث أقام حتى عام 1938 تاريخ هجرته إلى لندن. حقق نجاحاً كبيراً في دراسة الطب والبيولوجيا ولكنه اضطر إلى التخلي عن الدراسة الجامعية بسبب مداخيله

المتواضعة وأصله اليهودي. ففتح عيادة وأخذ يهتم أكثر فأكثر بالاضطرابات النفسية. واكتشف التنويم المغناطيسي في باريس مع شاركو. ابتداءً من عام 1895، وضع نظرية التحليل النفسي من خلال تفسيره للأحلام وأهمية الجنسية في تكوين أمراض العصاب وإمكانيات المعالجة بواسطة تداعي الأفكار الحرة[1].

نظرياته.ـ لم يحلل فرويد سوى طفل واحد هو هانس وحتى أن ذلك تمّ بواسطة والد الطفل! واعتبر أن التحليل النفسي للأطفال ليس مستحيلاً فحسب بل خطير. ولكن هذا لم يمنعه من ملاحظة ما يجري حوله. فقد اكتشف فرويد أثناء التحليل النفسي لمرضى كبار أحداثاً مؤلمة أو صعوبات علائقية في السنوات الأولى من العمر[2]. إن تكوين الشخصية بأكمله بحسب فرويد يفسر استناداً إلى نمو الدافع الجنسي أو الليبيدو. لقد أثار فضيحة في زمنه عندما تحدث عن «الجنسية الطفولية»، ووصف مراحل الليبيدو التي أصبحت فيما بعد كلاسيكية وهي: المرحلة الفمية (من الولادة حتى عمر 12 ـ 18 شهراً)، المرحلة الشرجية (من 18 شهراً إلى 4 سنوات)، والمرحلة القضيبية (الجنسية) وعقدة أوديب (من 4 إلى 6 أو 7 سنوات).

إن تعبير «الجنسية الطفولية» لم يفهمه الجمهور العريض الذي لا يعرف سوى «الجنسية التناسلية». ففي الحقيقة إن الجنسية الطفولية بالنسبة إلى فرويد ليست التنفيذ المباشر لنشاط جنسي كما يفهمه الكبار. إنه بالأحرى البحث عن «اللذة». فكل فرد مهما كان سنه يبحث دائماً عن اللذة ويسعى إلى تلبية هذه الحاجة باستخدام جزء معين من جسده أو من محيطه. فيحدد فرويد الجنسية الطفولية بأنها

---

(1) L'édition anglaise des principaux ouvrages psychanalytiques de Freud compte 23 volumes..! Concernant le dévoloppement de l'enfant, nous citerons: Trois essais sur la théorie de la sexualité, Gallimard, 1962, coll. «Idées» 1905; Analyse d'une phobie d'un petit garçon de 5 ans: le petit Hans, 1909; Cinq psychanalyses, PUF, 1954; Métapsychologie, Gallimard, 1925; L'interprétation des rêves, Paris, PUF; Introduction à la psychnalyse, Paris, Payot.

(2) C. Brabant, Clés pour la psychanalyse, Seghers; F. Dolto, Psychanalyse et pédiatrie, Paris, Seuil, 1971; E.H. Erikson, Enfance et société, Paris, Delachaux & Niestlé, 1982; R. Jaccard, Histoire de la psychanalyse, Livre de poche, Biblio-Essais, n^{os} 4025 et 4026, 1982; Laplanche et Pontalis: Vocabulaire de la psychanalyse, PUF, 1967; O. Mannoni, Freud par lui-même, Paris, Seuil; V. Smirnoff, La psychanalyse de l'enfant, PUF, 1966.

«كل ما يتعلق بالنشاطات في مرحلة الطفولة الأولى الباحثة عن المتعة المحلية التي يمكن أن يحققها هذا العضو أو ذاك من الجسم».

المرحلة الفمية (من الولادة حتى 12 ـ 18 شهراً): في الأشهر الأولى يكون الفم هو المكان الأساسي لأحاسيس اللذة عند الطفل. فالطفل يشعر باللذة في رضاعة الثدي أو الرضّاعة. ثم يبدأ بمص إبهامه.

ففي الواقع، إن المنطقة الجنسية مؤلفة من نقطة التقاء الجهاز التنفسي والجهاز الهضمي امتداداً إلى الأعضاء الحسية من الجلد. فالموضوع الفريد للرغبة هو ثدي الأم الذي يؤمن اكتفاءً ليبيدوياً يستند إلى حاجة فيزيولوجية هي التغذية.

حوالى عمر ثمانية أو عشرة أشهر يصبح النشاط الفمي أقوى وأكثر عنفاً. في هذه المرحلة يمكن أن تظهر عند الطفل بالفعل بعض العدوانية (رفض الطعام) تجعلها تتفاقم عدوانية مشابهة عند الأم (إطعام مفرط). إن الطفل في هذه السن يعض أهله أو الأولاد الآخرين. فبواسطة الفم يدخل الطفل في علاقة مع العالم الخارجي.

المرحلة الشرجية (من 18 شهراً إلى 3 أو 4 سنوات): حوالي عمر 18 شهراً يعي الطفل عملية التبرز. والمنطقة الجنسية هي الغشاء الشرجي وامتداداً إلى كل داخل الجسم. وموضوع الغريزة هو الأمعاء الشرجي. إنه موضوع تبادل إذ إن الهدف الغريزي ليس فقط الإفراغ، ولكن اللعبة المزدوجة من الإفراغ والامتناع. إن هذه التجربة أساسية؛ فهو متعجب جداً من هذه الأحاسيس وهذا الإنتاج الذي كان هو نفسه ويخرج منه ويمكن أن يقدمه لأمه. في المرحلة الشرجية الأولى لا يشعر الطفل بأي قرف من برازه. فهو يلعب به ويضع يديه فيه ويمكن أن يوسخ به الجدران. هذه اللذة في الامتناع عن الإفراغ والإفراغ تفسر الجلسات الطويلة من الجلوس على الوعاء التي تتكرر في هذه السن. إن المحيط يعلمه أن هذا الشيء وسخ، «كاكا»، يجب أن لا يلمسه. . . ففرويد يعتبر أن هذه هي السن التي تظهر فيها المشاعر العدوانية عند الطفل مع مفاهيم الملكية الخاصة، السلطة والمراقبة والسيطرة والتملك. كل تملك هو في النهاية تماثل مع التملك الأكثر بدائية: تملك البراز.

في الوقت نفسه يتكون الهدف السلبي بالوصول إلى اللذة بواسطة تجارب

مؤلمة: المازوشية. إن الاضطرابات في هذه المرحلة يمكن أن تؤدي لاحقاً إلى نتائج خطيرة:

ـ الإفراط في الحرية قد يكون في أساس الانفلات الأخلاقي.

ـ الإفراط في الحماسة أو الصرامة قد يؤدي إلى التعصب أو التقديس الشديد للنظام، واحتقار «الكائنات الأدنى». هذه المرحلة من الليبيدو ترافق تعلم المشي و «السلبية» (سن «اللا»). فالطفل يدخل في مرحلة اكتساب الاستقلالية التي ترافقها العدوانية: فهو قد يرفض أن يعطي ما نطلبه منه في الوقت المناسب أو التوسيخ عندما نمنعه من ذلك.

المرحلة القضيبية (حوالي عمر 4 أو 5 سنوات) تتركز الدوافع على الجهاز الجنسي. فيكتشف الطفل جنسه. ويبدأ باكتشاف لذة اللمس التي يحصل عليها بالمداعبة: إنها مرحلة العادة السرية الطفولية المباشرة أو غير المباشرة التي يحصل عليها الطفل باحتكاك ساقيه مثلاً.

إن الصبي الصغير يلاحظ في هذه السن عدم وجود قضيب عند أمه. فيبدأ أولاً بإنكار هذا الأمر البديهي ثم عندما يقبل الفكرة يخاف أن يفقد عضوه: إنه قلق الخصي.

ويزداد هذا القلق عندما يصر الأهل على منعه من اللعب بعضوه، أو على الأقل بتحويل اهتمامه عن هذا الأمر. فيخشى الطفل من عقاب هو قطع عضوه.

أما الفتاة الصغيرة فلا تخاف من فقدان عضوها ولكنها تغار. فهي تفضل أن يكون لديها قضيب مثل الصبي، إنها «الرغبة في القضيب». إنها تبحث عما تفقده عند والدها أو على الأقل على الحصول على ما يعادله: الولد.

إن اكتشاف هذا الفرق بين الجنسين يرافقه فضول كبير جنسي واهتمام بتحركات الأهل الغريبة في غرفتهم. ومسألة الإنجاب يبدأ الأولاد بطرحها: كيف يأتي الأولاد إلى العالم؟ إنّ الولد يتصور العلاقات الجنسية للوالدين كعمل عدواني وسادي، كعلاقة المسيطر مع المسيطر عليه: إنه «هوام الحادثة البدائية». وبموازاة هذه الاكتشافات يفهم الولد العلاقة المثلثة بينه وبين الوالدين. ويدرك الطفل أن

الأم تكن شعوراً لطيفاً تجاه الأب وأنه ليس وحده موضوع اهتمامها. إن هذا الاكتشاف هو بداية «عقدة أوديب». ويقصد فرويد بهذه العقدة التجربة التي سيعيشها الطفل بين ثلاث وخمس سنوات.

إن كتاب الشاعر الأثيني يشرح كيف تكشفت الجريمة التي ارتكبها أوديب شيئاً فشيئاً، بعد تحقيق تأخر بصورة مصطنعة وأعيد إحياؤه لإظهار مؤشرات جديدة: فهذا التقرير يشبه إلى حد ما الخطوات التي يتبعها التحليل النفسي. أثناء الحوار تحاول جوكاست وهي الأم ـ الزوجة التي أعماها الحب أن تعترض على متابعة التحقيق. وكي تبرر معارضتها هذه أثارت حقيقة أن هناك الكثير من الرجال الذين حلموا بأنهم كانوا يعيشون مع أمهم كزوجة، ولكن الأحلام لا تستحق أي اهتمام.. (س. فرويد).

إن العدوانية والغيرة تظهران في علاقات الصبي بوالده. وينصب اهتمامه الأول على أن يصبح موضوع الرغبة الأوحد عند أمه. فالأب هو المنافس الخطير إلى حد ما والذي يشغل المحل المفضل في سرير الأم. فينشأ نوع من منافسة بين الصبي الصغير ووالده. من منهما سيكون الأقوى والأكبر والأسرع في السباق، الخ.. هذه المباراة تمثل نقلاً غير واعٍ للمنافسة الجنسية: من منهما يملك القضيب الأكثر أهمية بالنسبة إلى الأم. فالطفل يحاول أن يكون في الوقت نفسه مثل أبيه وأن يبعده. ويخشى أن يعاقبه الأب ويقطع له عضوه.

هذه المشاعر المزودجة يضاف إليها قلق الخصي. هذا القلق الشديد يؤدي إلى تعطيل كل رغبة في المباراة ويحل مكانها عندئذٍ نوع من الخضوع السلبي للأب. ومن ثم يبدأ الإعجاب بالحلول مكان هذا الشعور.

أما عند الفتاة الصغيرة فالمشاكل هي أكثر تعقيداً. في هذا العمر لا يعرف الطفل (بنتاً كان أم صبياً) سوى عضو جنسي واحد: القضيب. والمهبل، لا يجري اكتشافه بالفعل إلاّ باقتراب البلوغ. والفرق بين الجنسين لا يجري استيعابه إلاّ بالنسبة إلى القضيب: خوف الصبي من فقدانه، رغبة الفتاة في الحصول عليه.

من العبث هنا أن نختصر التنوع الوفير في هذا التصور والذي يستند إلى إبراز نشاطات تشهد على الفور أن في الجنسية الطفولية (العادة السرية، الغلمية القضيبية،

التعري، النُظار)، والهوامات (المشهد البدائي، نظريات عن الإخصاب والإيلاد).

إن عقدة أوديب تلعب دوراً أساسياً في بناء الشخصية وفي توجيه الرغبة البشرية. ويعتبرها المحللون النفسيون المحور المرجعي في المعالجات النفسانية محاولين في كل نوع من الأمراض أن يحددوا أنماط تشكلها وحلها.

قدم فرويد، باستخدامه تعبير عقدة أوديب، خدمة للفهم الحدسي للطفولة مستقلة عن التحليل النفسي. وأسطورة أوديب تدل بالحقيقة على أن ما أراد أن يصفه فرويد هو شيء كان دائماً معروفاً. هذا الموضوع المركزي يظل حقيقة مركزية دقيقة الصياغة ومعدلة ولكن لا جدل فيها. إن علم النفس المبني على إلغاء هذا الموضوع المركزي سيكون مصيره الفشل حتماً لذلك لا يمكن إلاّ أن نعترف بفضل فرويد في إقدامه هذا وفي كونه قد حدد ما كان يكتشفه بصورة متكررة رغم ردة فعل الجمهور الشديدة العنف.

إن الملاحظة المباشرة لا تؤكد درجة الأهمية التي يعطيها المحلل النفسي لعقدة أوديب. (د. ڤ. ڤينيكوت، الطفل والعالم الخارجي).

بعد أن تنحل عقدة أوديب، يلقى قسم كبير من الانفعالات المرتبطة بالحياة الجنسية في اللاوعي، منسية، مكبوتة. إنها مرحلة الكمون التي ستستمر حتى سن البلوغ. فطاقة الولد يعاد توزيعها وتتسامى؛ وتنتقل بالتالي إلى النشاطات المدرسية والثقافية والرياضية والاجتماعية. وعند ظهور صعوبات علائقية (ولادة أخ أو أخت، الخ..) يمكن أن يوقف الطفل تطوره («تثبيت») أو حتى النكوص إلى مرحلة سابقة.

2 ــ ميلاني كلاين (1882 ـ 1960)

حياتها.ـ ولدت في فيينا عام 1882 ومارست التحليل النفسي على الأطفال في بودابست. عام 1921 استقرت في برلين ثم عام 1925 ذهبت إلى لندن حيث أصبحت تلميذة ك. أبراهام. استقرت نهائياً في انكلترا وتابعت أعمالها[1] بموازاة

---

(1) Essais de psychanalyse (1921-1945), Paris, Payot, 1968; Dévoloppement de la psychanalyse (1948), Paris, PUF, 1966; La psychanalyse des enfants (1932), Paris, PUF, 1986; Psychanalyse d'un enfant (1947), Paris, Tchou, 1973.

أعمال آنا فرويد. وأنشأت تقنية تحليل نفسي بواسطة اللعب عند الطفل، الذي يعادل التحليل بواسطة الأحلام عند الكبار.

نظرياتها. ـ كانت ميلاني كلاين أول محللة نفسانية تأملت التنظيم النفسي للمولود الجديد موجهة كل انتباهها إلى كشف الحياة الداخلية للرضيع ولهواماته[1].

إن عمل ميلاني كلاين يؤكد على أهمية السنوات الأولى ويؤدي إلى تحديد روزنامة للاندفاعات الغريزية (ثنائية الاندفاعية: اندفاع الحياة ـ اندفاع الموت) تبرهن من خلالها على وجود هذه الدوافع بصورة مبكرة. إن الأفكار الأكثر غرابة عند ميلاني كلاين هي التي تتعلق بالحياة الهوامية عند الرضيع الموجودة مسبقاً قبل أي تجربة معيشة. أتت هذه الأفكار من فترات المعالجة بالتحليل النفسي التي طبقتها على معاشة الأولاد الصغار. إنها إذن آراء مرتبطة مباشرة بتجربة عيادية.

فهي تعتبر أن نفسية الرضيع متطورة جداً منذ السنة الأولى. وتصف هوام الرضيع الذي يهاجم بطن أمه. وتقدم نظرة غير متوقعة للرضيع الذي يركز على أحاسيسه الإحشائية وينغمس في القلق فريسة لويلات الأنا الأعلى الفظيع ونجد عدوانية افتراسية تجاه أمه.

إن هذه الاندفاعات الغريزية البدائية التي أشارت إليها كلاين أثارت الرعب وكانت كالفضيحة بالنسبة إلى الأوساط الطبية الإنكليزية في بداية القرن. فقد فسرت ميلاني كلاين مثلاً مص الولد لأصبعه وهو في عمر ست سنوات ويخضع للتحليل النفسي بأنه يعود إلى هوامات مص وعض وافتراس قضيب الأب وثديي الأم، فالقضيب يمثل الأب بأكمله والثديان يمثلان الأم بكاملها. يخيّل للطفل بحسب كلاين أن بطن الأم يحتوي قضبان عديدة للأب وأطفال يتجسدون بشكل

(1) W. Bion, Attention et interprétation, Paris, Payot, 1974; C. Geets, Melanie Klein, Psychotèque-Èd, Univ. 1971; R. Jaccard, Ce que Melanie Klein a vraiment dit, Marabout, Verviers; S. Lebovici, L'Œuvre de Melanie Klein, Psychologie de l'enfant, IV, 2, 1962; H. Ségal, Dévoloppement d'une pensée, Introduction à l'Œuvre de Melanie Klein, PUF, 1985.

براز. فالطفل يخاف من فكرة كونه سيئاً هو نفسه ويفترض أن أمه تضمر له العدوانية نفسها.

تعتبر ميلاني كلاين على عكس آنا فرويد أن التحليل النفسي للأطفال الصغار ممكن (سنتان ونصف) إذا استخدمنا تقنية اللعب. ينظر المحلل إلى الطفل ويعلق على حركاته وأفعاله ورسومه وطريقة إمساكه باللُّعب. هناك مواد رمزية (ماء، رمل) تستخدم لتحفيزه على الكلام، والتداعي الحر، والتعبير عن رغباته اللاواعية. إن جلسات اللعب تسمح بإزالة القلق.

3 ــ آنا فرويد (1895 ـ 1982)

حياتها. ـ إنها الابنة الثانية لفرويد وقد تفرغت منذ عام 1926 للتحليل النفسي للأولاد. وظلت طوال حياتها في تناقض دائم وحاد مع ميلاني كلاين.

نظرياتها. ـ كانت تعتبر أنه لا يمكن أن يكون هناك نقل من قبل الطفل. وتؤكد على أهمية الملاحظة المباشرة لبناء «علم نفس تحليلي» للطفل يؤكد على دور المحيط في التأثير على النمو. إن تبعية الطفل لمحيطه أدخلت بعداً جديداً في علم الأمراض بالنسبة إلى آنا فرويد. إن نمو الطفل لا يتم وفق برمجة حتمية لمجرى سير منتظم ولكنه يتبع خطوطاً في النمو[1]. إنها هي التي حددت «تفكك الأنا عند الطفل». هذا التعبير يدل على حالة التعب النفساني للطفل في نهاية يوم طويل. فجميع الأهل عرّفوا هذه الفترات التي يكون الولد فيها متوتراً بسبب اللعب، فيرفض أن ينام عند المساء معانياً أزمة أعصاب حقيقية. هذه الحالة تتطلب موقفاً حازماً من قبل الأهل. إذ تجري الأمور وكأن الطفل هو بحاجة إلى سلطة خارجية تضع له الحدود التي عليه ألاّ يتجاوزها.

---

(1) Le traitement psychanalytique des enfanst, Paris, PUF; Le Moi et les mécanismes de défense, Paris, PUF, 1985, coll. «Bibliotèque de psychnalyse»; Le normal et le pathologique chez l'enfant, Paris, Gallimard, 1968 (Connaissance de l'inconscient, n° 6); Initiation à la psychanalyse pour les éducateurs, Toulouse, Privat, 1972 (3e éd); Les enfants malades (avec Thesi Bergmann) Toulouse, Privat, 1976; L'enfant dans la psychanalyse, Paris, Gallimard, 1976.

4 ـ رينيه آربد سبيتز (1887 ـ 1974)

حياته.ـ هو محلل ونفساني من أصل هنغاري ولد في فيينا ومات في دنفر (كولورادو). مارس عمله في الولايات المتحدة حيث تابع أعمال فرويد. إن مقاربته فريدة من حيث إنها تجمع بين المفاهيم التحليلية والطرق التقليدية في التحقيق النفساني والملاحظة المباشرة (روائز الأطفال، تسجيلات فوتوغرافية وسينمائية، «خداع بصري»، الخ). إن مؤلفاته تشكل المراجع الأساسية[1] لكل علماء النفس.

نظرياته.ـ تناولت أبحاثه ولادة الحياة النفسانية عند الرضيع. إن مراحل النمو النفساني التي يصفها سبيتز تشبه إلى حد ما مراحل بياجيه حول تكوين الذكاء. وأعماله توفِّق لفترة معينة بين التحليل النفسي وعلم النفس التجريبي. إن السن التي تظهر فيها هذه المراحل حسب المؤلفين هي وحدها التي تمت إعادة النظر فيها من خلال الأبحاث الحديثة. لقد كان سبيتز مقتنعاً بالتأثير المتعاظم للمحيط على نمو الطفل فقام بدراسة على رضع موجودين في مؤسسات معينة وقارن بين وسطين مختلفين. الأول هو دار حضانة إصلاحية حيث إن الأمهات المسجونات يهتممن بأولادهن. والثاني هو دار حضانة للأطفال المفصولين عن أمهاتهم حيث يحصلون على النظافة والتغذية السليمة والعناية الطبية من قبل أشخاص مؤهلين. لقد كان سبيتز أول المندهشين من النتائج. إن نمو وصحة الرضع «في السجن» كانت أفضل بكثير من أطفال الدار الثانية، خاصة عندما يكون هؤلاء الأطفال قد عاشوا عدة أشهر مع أمهاتهم قبل وضعهم في هذه الدور.

إن هؤلاء الأطفال يتراجعون على الصعيد النفسي والفكري في إطار من العارض الاكتئابي الحقيقي. تعود هذه الحالة المسماة «الفصال» إلى الانفصال المبكر عن الأم وإلى عدم استبدالها «بالبديل» المناسب. ففي الواقع، رغم أن حاجات الأطفال الجسدية كانت مؤمنة إلاّ أن الجهاز العامل قليل العدد ولا يمكنه أن يلبي كل الرغبات العاطفية والاجتماعية لهم. فأظهر سبيتز بهذا الشكل أهمية العلاقات ما بين الأشخاص الأولية في نمو الذات. استناداً إلى هذه الملاحظات

---

(1) De la naissance à la parole. (La première année de la vie). Paris, PUF, 1968; Le non et le oui, Paris, PUF, 1962.

تناولت أعمال سبيتز مسألة «بناء الصلة الغيرية». فبعد فترة من الزمن لا يكون المولود الحديث قادراً على التمييز بين نفسه ومحيطه فتحدد بسمة الأم القصدية («المنظم النفساني الأول») بداية التعرف إلى الأم كموضوع للحب. ثم «قلق الشهر الثامن» أو «الخوف من الغريب» («المنظم الثاني») يدل على أن الطفل يميز بين أقربائه والآخرين. وأخيراً «اللا» الأولى عنده («المنظم الثالث») تؤكد هويته بمواجهة الآخر.

مرحلة ما قبل الغيرية عند الحديث الولادة تتطابق مع المرحلة النرجسية الأولى عند فرويد. إن المولود الحديث يعيش في مرحلة اتحادية. فحياته خاملة فهو لا يميز بين الوسط الخارجي المحيط به ونفسه. ولا يميز الأصوات التي يصدرها عن الأصوات التي يسمعها. هذا الإدراك المرتبك والذي لا يميز بين مختلف العناصر المحيطة يسمى «التخليط». فهو لا يبدأ بالتمييز إلا في حوالي عمر ثلاثة أشهر بفضل نضج جهازه العصبي وأعضائه الإدراكية. وفي هذا العمر يبدأ بالفعل باكتشاف لذة الزقزقة إذ يدرك أن لديه قدرة على إصدار الأصوات على عكس تلك التي تأتيه من الخارج. إن الطفل لا يدرك المعالم إلاّ بطريقة متقطعة عندما يكون هادئاً ومتحفزاً. لذلك نرى مثلاً أن عصبيته بسبب الجوع تمنعه من التعرف إلى ثدي الأم أو الرضّاعة عندما يراها. بالإضافة إلى ذلك إن الرضيع لا يتعرف إلى مؤشر الطعام إلاّ عندما يكون جائعاً. إن نشاطه الحركي هو إجمالي: وهي ارتكاسات بدائية. فالوتيرة اليومية عنده يحكمها توالي الجوع والنوم. فيوجد بينه وبين الأم التي هو في تبعية كاملة لها، وحدة دائرية من تبادلات بالاتجاهين تسمى «زوج» حيث يكون العنصر المسيطر فيها هو حياة الأمومة العميقة. ابتداءً من الشهر الثاني يبدأ الطفل بالاهتمام بما يحيط به، وينتقل الرضيع تدريجاً من الإدراك بواسطة الاحتكاك إلى الإدراك عن بعد. وابتداءً من الثلاثة أشهر يكتسب الطفل حس النتوءات والمساحة بأبعادها الثلاثة. إنه الوقت المناسب لتثبيت العدادة فوق سريره كي يتمكن الرضيع من النظر إليها ولمسها وسماعها في الوقت نفسه. إن الفم هو وسيلة إدراك وإدخال للمعدة وتفحص. إن الولد يضع كل شيء في فمه، فهو بالنسبة إليه وسيلة تعرف.

المرحلة السابقة للموضوع أو الإجابة بالبسمة تتطابق مع المرحلة الانفصالية

عند فرويد. إن البسمة هي أول تصرف ناشط وقصدي للرضيع. إن هذه البسمة الإرادية يوجهها الطفل إلى الوجه البشري شرط أن يكون متحركاً ومؤلفاً من جبين وعينين وأنف. إن الرضيع يبتسم للوجه الذي هو بمواجهته في حوالي الثلاثة أشهر. ويتعرف إلى وجه أمه بين الأربعة والستة أشهر.

فهناك «الأم الطيبة» و «الأم السيئة». والرضيع يراهما مختلفتين قبل أن يفهم أنهما الشخص نفسه. «فالأم السيئة» هي التي ترفض أن تلبي رغباته ويوجه عدوانيته نحوها. و «الأم الطيبة» هي التي تلبي رغباته ويظهر لها حبه. تدريجاً تصبح المكبوتات محتملة لأنها تؤذن بإشباع قريب. إن هذا التخلي المؤقت لصالح تلبية لاحقة هو في أساس مبدأ الواقعية.

فالأم إذن هي نقطة تلاقي مشاعر متعارضة من العدوانية والحب من قبل الرضيع. فهذه الازدواجية ضرورية إذ إن الأم التي تحاول تجنيب الطفل كل كبت تتسبب بحالة تبعية وتقف عائقاً بوجه استقلالية الولد إذ تمنعه من أن يحتك بالواقع.

إن قلق الشهر الثامن وبداية العلاقات الغيرية يمكن التعرف إليها بسهولة فاقتراب إنسان غريب أو ذهاب الأم تحدث عند الرضيع بعمر حوالي ثمانية أشهر ردة فعل مميزة من الخوف والانطواء والبكاء.

في فترة ظهور القلق يميز سبيتز بين ثلاث مراحل هي:

ــ النموذج الأصلي الفيزيولوجي لظواهر القلق، حالة عادية من التوتر.

ــ ردود فعل التجنب بين 4 أو 6 أشهر حيث يستطيع الطفل أن يعبر عن الخوف في وضع يعرفه مسبقاً لأنه عاشه مرات عدة وسجل طابعه السيء أو المؤلم.

ــ قلق الشهر الثامن، إدراك نفساني داخلي متميز.

إن إدراك «اللا» هو المرحلة التالية. منذ أن يبدأ الطفل بالمشي يواجه بعدد كبير من الممنوعات وتتعدد «اللا». فيجد الولد نفسه في وضع حساس: فهو منقسم بين رغبته والممنوع الكابت، بين حبه لأمه وعدوانيته. فيتخذ حلاً كالتسوية ويتماهى بالمعتدي.

إنه سن «اللا» وهي ركيزة العدوانية. وعندما يهز الطفل رأسه ليقول لا فهو يبرهن للمخيطين به أنه قادر على الحكم والرفض وفرض إرادة مؤكداً بذلك شخصيته.

5 ـ جون بولبي (ولد عام 1907)

هو طبيب أطفال ومحلل نفساني إنكليزي، تابع تعليم ميلاني كلاين ثم عمل في مستشفى تافيستوك من عام 1946 حتى عام 1972.

لقد استهلم أعمال سبيتز عن الفصال وأعمال هارلو حول القرود الصغيرة ريزوس المفصولة عن أمهاتها واكتشاف «البصمة» من قبل الإثنولوجيا[1] (كونراد لورنز)[2]، فبرهن أن تعلق الصغير بصورة الأم يشكل جزءاً أساسياً من أعماق الجنس البشري وكذلك الأمر بالنسبة إلى العديد من الأجناس. وفي كتابه التعلق والفقدان (PUF, 1978) يؤكد على العلاقة مع الأم ومفهوم حاجة التعلق بالأم بصرف النظر عن الإرضاع، وبالتالي هو يؤكد على أهمية قلق الانفصال. فبالنسبة لبولبي إن الحاجات الأساسية للمولود الجديد تتحدد على مستوى الصلات الجسدية. إن الطفل بحاجة غريزية إلى الثدي وإلى ملامسة الكائن البشري جسدياً ونفسياً. فهو يفسر «دافع التعلق» بتحديد خمسة أنواع من التصرفات الغريزية («باترنز») خلال السنتين الأوليتين من الحياة والتي تتتابع وعلى الأم الاستجابة لها هي: المص، العناق، الصراخ، البسمة، الاتجاه للذهاب نحو، التمسك. فيؤكد بولبي بهذا الشكل على القدرة الاجتماعية المبكرة للرضيع. إلاّ أن الأم ليست بالضرورة هي الأم «البيولوجية». فإذا لم يتوفر التفاعل الكافي فالتعلق لا يتحقق بين الطفل وأمه. فالتعلق الناجح أي الاستجابة المناسبة من المحيط لكل إشارات الطفل تبني شعور الثقة بالنفس والأمان عنده فيتمكن في المستقبل من

---

(1) إن تجربة علم الإثنولوجيا هذا هي كلاسيكية: فهو يقدم للقرود الصغار نوعين من «الأم البديلة»، واحدة من أسلاك حديدية مزودة برضّاعة حليب والثانية من فراء ولكن بدون رضّاعة. فالقرد الطفل يفضل بلا منازع الملمس (فراء ـ حرارة) ويهمل الحاجة إلى الغذاء.

(2) كان يتكلم مع اللبونات والعصافير والأسماك: كل الكلاب، كل الهرر، Flammarion, 1987.

مواجهة الافتراق والتجارب اللاحقة بصورة أفضل. لقد انتقد العديد من المؤلفين بولبي لكونه ابتعد عن نموذج التحليل النفسي التقليدي الذي يجعل من التغذية ثم من العلاقة الفمية بدايات علاقة الأم بالطفل وبناء الجهاز النفسي الطفولي. أما بولبي فيعتبر على العكس أن الحاجة الاجتماعية عند الرضيع تظهر قبل اختباره عناية الأم له.

فقد اختصر زازو هذا المفهوم عندما كتب: «إن بناء العلاقات الأولى بين الطفل والأم أو التي تحل محلها تلبي حاجة بيولوجية أساسية، هي الحاجة البدائية أي التي لا تشتق عن أي حاجة أخرى».

6 ــ دونالد وودس ڤينيكوت (1897 ـ 1971)

حياته.ـ إنه طبيب أطفال ومحلل نفساني إنكليزي، احتل مكاناً خاصاً في التحليل النفسي الطفولي بسبب فرادته وعدم تقليديته وموقعه على هامش المدرستين البريطانيتين لآنا فرويد وميلاني كلاين. لقد كان لبرامجه الإذاعية في ب. ب. ث BBC وقع كبير على الأهل. فمعظم نصوص هذه البرامج جرى نشرها. وهي بمعظمها مقابلات مخصصة للأمهات، تهدف كل أبحاثه النظرية وملاحظاته العيادية إلى إعادة بناء دينامية الطفولة الأولى والنرجسية الأولية حيث علاقة الأم بالرضيع أساسية. ويحاول أن يربط المعرفة التحليلية بمفاهيم الوراثة والبيولوجيا والفيزيولوجيا الضرورية لفهم ظواهر الطفولة. إن حسه الفكاهي يعطي لكتاباته[1] طابعاً مستحباً.

نظرياته.ـ إن مقاربته العلاجية وأعماله النظرية لا يمكن فصلها عن شخصيته الفريدة. إن تقنيته «لعبة الخربشة» مثلاً هي ذات شهرة: فالإنسان الكبير والطفل يقدمان أحدهما للآخر «خربشات» رسمت بصورة حرة على ورق أبيض ويناقشانها

(1) De la pédiatrie à la psychanalyse, Paris, Payot, coll. «pbp», 1969, n° 253; L'enfant et le monde extérieur, Payot, coll. «pbp» n° 205; L'enfant et sa famille, Payot, coll. «pbp», n° 182; La consultation thérapeutique et l'enfant, Paris, Gallimard: Processus de maturation chez l'enfant. Dévoloppement affectif et environment, Paris, Payot, coll. «pbp», 1970, n° 245); Fragments d'une analyse, Payot, coll. «pbp», n° 355; La petite «Piggle». Traitement psychanalytique d'une petite fille, Londres, Tavistock, 19578.

مداورة. لقد شغل ڤينيكوت مكاناً في تاريخ علم النفس الطفولي لمساهماته في موضوعين: الموضوع البديل (الإبهام، طرف الغطاء، دب من فراء) ومفهوم «الذات». ويقصد هذا المحلل النفسي بهذه الكلمة وظيفة فريدة من نوعها فهي ليست تماماً «الأنا» ولا الذات ولا حتى الشخصية. ويفهم بهذا التعبير خاصة تناقضه مع «الذات الزائفة» التي تتوافق عند الشخص مع كل شيء «مزيف» أو الشبيه المغلوط. إن الذات الزائفة تعمل كواق من القلق والاعتداءات ولكنها في الوقت نفسه توحي باختلال عميق. أما «الذات» الحقيقية فهي على العكس تمثل الجانب الحيوي والعفوي والخلاق عند الفرد. ألقى ڤينيكوت ضوءاً جديداً على الأداء العقلي للطفل الصغير. فهو يعتبر أن الطفل هو شخص منذ الأيام الأولى. ويقدر أن الطفل يعرف في الحقيقة أشياء عن أمه أكثر مما تعرف هي عنه لأنه قاسمها خلال تسعة أشهر حياتها الخاصة. وكان مقتنعاً بأن الأم التي تحب ابنها «بصورة طبيعية» هي أم صالحة. كما يتوقف على العناية المقدمة للرضع. فهو يعطي أهمية كبيرة للطريقة التي تحمل فيها الأم طفلها (طريقة الحمل holding)، والطريقة التي تعتني بها بالطفل والطريقة التي تقدم بها له الأشياء الجديدة (تقديم الأشياء). ويعتبر أن الاعتناء كي يكون ملائماً يجب أن تتوفر فيه خصائص الاستمرارية والصدق والتكيف التدريجي مع حاجات الطفل. فطريقة الحمل (Holding) وهي كلمة لا مرادف لها بالفرنسية هي مجموعة الوضعيات التي تتبناها «الأم ذات الطيبة الوافية» بطريقة لا شعورية فتقدم لطفلها نوعاً من العش خارج الجسد بعد الحياة الرحمية التي عاشها. إنها وسيلة لحمايته من القلق والانفصال والخسارة. ويصر ڤينيكوت على أن ليس هناك أي صدمة لا يمكن معالجتها، فهناك دائماً إمكانية تصليح. ولهذا السبب نقارن دائماً بين النظرات «التفاؤلية» عند ڤينيكوت والنظرة الحزينة عند ميلاني كلاين.

في البداية أعتقد أنك سترتاحين عندما تعلمين أنني لا أهدف إلى القول بما عليك القيام به. فأنا رجل وبالتالي لا أستطيع أن أعلم حقيقة ماذا يعني رؤية جزء صغير من نفسي مقمطاً داخل مهد، جزءاً صغيراً من نفسي له حياته المستقلة وشيئاً فشيئاً يصبح شخصاً. فقط المرأة تستطيع أن تعيش هذه التجربة (. . .).

ومن بين الأشياء اليومية التي تقومين بها هناك أشياء هامة جداً تحققينها

بصورة طبيعية جداً. واللطيف في هذا الأمر هو أنه ليس بالضرورة أن تكوني عالمة؛ فأنت حتى لست بحاجة إلى التفكير إذا لم ترغبي في ذلك في المدرسة. وكنت ضعيفة جداً في الرياضيات وربما كان صديقاتك قد حصلن جميعاً على منح قد لا ترغبين حتى في رؤية كتاب تاريخ مما يعني أنك كنت لن تنجحي حتى لو لم تصابي بالحصبة قبل الامتحان. ولكن من الممكن أن تكوني في الحقيقة عالمة. كل هذا لا يهم رغم كل شيء وليس له أي علاقة بأن تكوني أو لا تكوني أماً متفانية بشكل طبيعي وأنا مقتنع أنك كذلك في معظم الأحيان. أليس مستغرباً أن أمراً بهذا القدر الكبير من الأهمية قليلاً ما يرتبط بذكاء استثنائي!.

7 ـــ فرنسواز دولتو (1908 ـ 1986)

حياتها.ـ هي طبيبة أطفال ومحللة نفسانية ساهمت مع لاكان في تأسيس مدرسة باريس الفرويدية. هي رائدة في التحليل النفسي للأطفال في فرنسا وكان لكتبها[1] العديدة وبرامجها الإذاعية على محطة فرنس ـ انتر وقعاً كبيراً. لقد أعطت أهمية لدور الرغبة واللغة والذاتية المتبادلة وركزت على وجودها بصورة مبكرة. وهذا مثل بسيط يسمح برؤية طريقة عمل هذه العالمة التي يوجه إليها الاتهام بأنها حدسية جداً وليست منهجية بصورة كافية في حين أنها تأخذ بجدية أقل جملة أو كلمة أو رسمة محاولة في كل مرة أن تفهم ما يمكنها أن تعني بالنسبة إلى الطفل الخاضع للتحليل.

في الجزء الثاني من كتاب «محاضرات في التحليل النفسي» للطفل منشور في دار النشر «سوي» تذكر فرنسواز دولتو هذه الطرفة الغريبة:

---

(2) Psychanalyse et pédiatrie. Les grandes notions de la pscyhanalyse, Paris, Le Seuil, 1966, «Points», n° 69; Le cas Dominique, Paris, Le Seuil, «Points», n° 49; Lorsque l'enfant parait, 3 vol. Paris, Le Seuil: L'Évangile au risque de la psychanalyse. J-P. Delarge, «Points», n° 111, Paris, Le Seuil; La difficulté de vivre, Inter-Éditions; Au jeu du désir, Paris, Le Seuil; La sexualité féminine, A-M. Métailié, Le Livre de poche, n° 6023; L'Éveil de l'esprit de l'enfant, Aubin: Séminaire de psychanalyse d'enfants, Le Seuil; L'image inconsciente du corps de l'enfant, Le Seuil; La cause des enfants, Paris, Robert Laffont, 1985; Séminaire de psychanalyse d'enfants, Paris, Le Seuil, 1985.

إنني أسترجع ذكرى عن حالة غريبة لطفل أصم. وهي فتاة صغيرة بعمر ثلاث سنوات؛ كانت منهمكة باللعب فسألت أمها إذا كان قد حصل معها حالة إجهاض. فأجابتني: «أجل، ولكن كان ذلك قبل ولادة الصغيرة». وكانت قد خضعت لإجهاض بناء على نصيحة طبيب. إذن لم يكن هذا هو السؤال. قلت للأم: «إذن هناك شيء آخر». فبدأت بالضحك قائلة: «كان هذا سخيفاً». قلت لها: «كلا، ليس الموضوع هو الإجهاض الذي حصل قبل ولادتها بل الذي حدث عندما كانت الفتاة موجودة ـ أجل، بالطبع عندما كان عمرها عشرة أشهر حملت مرة ثانية. وقمت بمنع إرادي للحمل (IVG). والآن نحن نحاول منذ ستة أشهر أن أحمل بولد آخر ولا أتمكن من ذلك. وهذا يزعجني كثيراً، ولكنني أتساءل هل هذا قرار سليم وأنا لدي طفلة صماء ستكون مشكلة طوال الحياة.

فطمأنتها قائلة: «إنني لا أعتقد أنها ستظل صماء طوال حياتها»، فهي تقول بصمتها: لم تفسروا لي لا أبي ولا أنت لماذا كان هناك طفل في بطنك ولا لماذا ذهب».

عندئذٍ، نظرت الصغيرة إلـيّ وشدت والدها نحوها قائلة: «تعال يا أبي، هذه السيدة مزعجة جداً»، في حين أنها لم تكن قد تكلمت أبداً في السابق..

8 ـــ إريك أريكسون

إن تحليل النفس الثقافي مخالف بشكل واضح لأفكار فرويد. فهو يسترجع ما يضعه فرويد في حساب البيولوجي ليسنده إلى الاجتماعي.

إن نظريات أريكسون مبنية على تحقيقات ميدانية وعلى معاينات الأطفال. واستخدمت كتبه كمرجع نظري في مجال التطبيق عند برونو بتلهايم. إن النمو العاطفي عند الرضيع ينتج عن شعور بالثقة تجاه نفسه وتجاه البالغ وتجاه المحيط. شعور الثقة هذا ينمو خلال السنة الأولى من حياة الرضيع الذي يكون فيها تابعاً بشكل كامل للأم. ويتعلم الطفل أن يثق بالآخرين بقدر درجة تلبية حاجاته الأساسية. فإذا هدأ جوعه دائماً خلال مدة معقولة، فسوف يكتسب شعوراً بالثقة تجاه الذين يعتنون به.

ففي كتاب «الطفولة والمجتمع» يتحدث أريكسون عن مرحلة المعارضة عند الأطفال بين سنة وثلاث سنوات قائلاً: «إن تعلم السيطرة على النفس مع الاحتفاظ باحترام الذات ينتج شعوراً دائماً بالحماسة والافتخار؛ والشعور بفقدان السيطرة على النفس وبوجودنا بين أيدي الآخرين يؤدي إلى اتجاه دائم للشك وللشعور بالذنب».

9 ــ هرمن رورشاخ (1884 ـ 1922)

هو واضع للرائز الإسقاطي الشهير «بقع الحبر» المخصص لمعرفة الاتجاهات العميقة للشخصية. إن بقعة سوداء أو ملونة لا تمثل شيئاً بحد ذاتها. فإذا سألنا طفلاً: «ماذا تمثل هذه البقعة؟ فلن يمكنه الإجابة إلاّ إذا تخيّل حلاً». هذا الجواب يأتي من خياله ويعبر عن أفكاره ومشاعره وآرائه. وجوابه يدل على ما يعرف وما يشعر به وما قد شعر به أو عاشه في السابق. فالطفل يسقط اللاوعي عنده في الإجابات. إن آلاف الملاحظات أدت بالمحلل النفساني إلى تشكيل شبكة إجابات تسمح بالتعرف إلى شخصية الطفل الذي خضع للرائز. كما علينا أن نشير من بين الباحثين في علم النفس الطفولي إلى: جورج آمادو، ليون كرسلير، جاك لاكان، ماهلر، سيرج ليبوڤيتسي، ڤابيون، شارل بودوان، بيتر بلوس، ماريز شوازي، جوليت فاڤيز ـ بوتونْييه، فيكتور سميرنوف، دانيال ڤيدلوشير، فيزيل، هوبل، شانجو، روبير لولير، مارڤن منسكي، سيمور بابير، الخ.. لكن عرض نظرياتهم يتعدى إطار هذا العمل.

الفصل الرابع

مذكرات يومية للطفل بحسب عمره

إن المقاييس الرئيسية للنمو عند الرضيع التي سنختصرها فيما يلي على شكل ألعاب هي نقاط ارتكاز عامة. بعض التغييرات الطبيعية قد تظهر سواء بتقدم معين أو ببعض التأخر. إن وضع البطاقات لكل عمر على حدة هو طريقة عملية لوصف الأطفال ولكنها خطيرة إذا أخذت الأشياء بحرفيتها بمعنى أن كل طفل يختلف عن سواه فالأهل الذين يقارنون طفلهم بما جاء في الجريدة عن كل عمر قد يشعرون بالقلق بدون مبرر.

لقد اعتدنا التحدث عن «مراحل» النمو. إن هذه المراحل ليست جامدة. والحكم على سلامة نمو الطفل أشد تعقيداً مما نعتقد. فالطفل ينمو بصورة مستمرة منذ الأيام الأولى للحياة. فيجب أن يكون لدينا فكرة شاملة عن الطفل وعن ظروف حياته العائلية قبل أن نقلق لمشكلة ظاهرة غير طبيعية.

فبحسب طبائع الأولاد وإمكاناتهم الجسدية والجو العائلي، الخ.. قد يتصرفون وهم تماماً طبيعيون بطريقة مختلفة في الأعمار نفسها. فالطفل الذي يمشي في الشهر الحادي عشر ليس أكثر طبيعةً من ذلك الذي ينتظر الشهر الخامس عشر أو الثامن عشر كي ينطلق في المشي. والرضيع الذي تقدم بسرعة قد يبطىء وتيرة مكتسباته فيلحق به الطفل الذي بدا متأخراً بضعة أشهر عنه.

فخلال الأشهر الثمانية الأولى من الحياة تحدث كل الاكتسابات الخاصة مهما كان الوسط المحيط بالطفل والدوافع المقدمة له. ومن الصعوبة أن نمنع ظهور هذه المكتسبات وهذه الحقيقة يجب أن تطمئن الأهل الجدد المبتدئين الذين يجدون أن الأحداث تتجاوزهم. وعلى هذا الأساس تبدو الأمور وكأن الطبيعة قد

حلت هذه المشكلة فمهما فعلنا فإن الطفل، حتى عمر ثمانية أشهر، يبدو وكأنه على الطريق الصحيح. فهو ليس بحاجة إلى أن نريه شيئاً يتحرك: مصباحاً، مرآة، وجهاً أو رسماً. إن لديه قدرته الخاصة على إيجاد هذه المعلومات في العالم المحيط به. فيمكننا القول إن الطفل يأتي إلى العالم مع «استراتيجية البحث عن المعلومات».

عمري شهر[1]. . .

قبضتاي مطبقتان دائماً ولكن إذا وضع شيء في يدي فإنني أشد عليه؛ فلدي في كل يد قوة تعادل كيلو. . .

أبدأ بالسيطرة على استقامة رأسي ولكن لا تطلبوا مني الكثير. إذا سمحتم يا والديَّ إمسكوا لي رأسي عندما تحملونني. عندما أستلقي على ظهري، أدير رأسي في معظم الأحيان نحو اليمين. إذا وضعتموني نائماً على بطني، أزحف دافعاً نفسي بالاستناد إلى أصابع رجلي. أحب كثيراً تأمل أمي عندما تكلمني. أفتح فمي وأطبقه في الوقت نفسه كما تفعل هي. . .

على كل حال عندما تقترب مني أو عندما أسمعها تكلمني أكف عن البكاء.

أحب أن أصرخ صرخات صغيرة؟ ولكن لا يفهمني أحد! عندما أبكي لا تكون المسألة معقدة فإما أن أكون جائعاً أو راغباً في أن أحمل. لقد سئمت من البقاء وحيداً في سريري. . .

إذا أردتم شراء هدية لي فإنني أحب الأشياء المتحركة ذات الألوان الحية المعلقة فوق سريري.

عمري شهران:

إنني قادر على القبض على الخشخاشة للحظات. إذا نمت على بطني أرفع رأسي وصدري. إذا كنت نائماً على ظهري أستطيع أن أتقلب إلى جانبي. إذا حملوني وأنا جالس أستطيع أن أبقي رأسي مستقيماً للحظات. إذا حملوني وأنا واقف أستطيع السيطرة على رأسي عدة ثوان. أمص قبضتي.

---

(1) لتسهيل القراءة كتب هذا التقرير بضمير الأنا المتكلم المذكر ولكن بالنسبة للفتيات الصغيرات فيكفي التصريف بصيغة المؤنث. .

عندما أكون مستلقياً على ظهري أتابع بعيني شيئاً أو شخصاً يتحرك. أمضي من الوقت أكثر وأكثر في مراقبة يدي. أبتسم إذا ابتسموا لي. أخذت أفهم أنني ألفت انتباه أهلي إذا بكيت. لا أبكي بطريقة واحدة عندما أكون جائعاً أو تعباً أو متألماً. أتوقف عن الحركة عندما أسمع صوتاً أعرف صاحبه. أزقزق.

إن التسلية المفضلة عندي هي النزهة في السيارة، أو المصاصة، سرير أو كرسي هزاز يمكن أن أتهدهد فيه.

عمري ثلاثة أشهر:

تخيلوا أنكم غير قادرين على الحركة وأنتم مفعمون بفضول شديد فأنتم عملياً في وضعي أنا كطفل بعمر ثلاثة أشهر. عندما أكون نائماً على ظهري أرفع يدي أمام وجهي وأنظر إليهما. أحب أن ألعب بأصابعي ويدي. ذراعاي وساقاي مطوية. أقوم برفسات حرة. أمد يدي نحو الأشياء البراقة التي أريد أن ألتقطها ولكن لا أصل إليها لأنني أسيء تقدير المسافات. أتمسك بغطائي وأجذبه نحوي.

عندما أكون منبطحاً على بطني أبقي رأسي مستقيماً ومتوازناً وأرفع صدري مستنداً إلى ساعدي.

يداي مفتوحتان. عندما أكون مستلقياً على ظهري، إذا جذبونني إلى الأمام لكي يجلسوني يتأرجح رأسي قليلاً.

ترمش عيناي عند شعوري بالخطر. أنظر إلى كل شيء حولي. أضحك وأحب أن أصدر أصواتاً. أصدر صرخات فرح. إن مزاجي دائماً جيد. أعرف أمي عندما أراها. أبتسم عندما تكلمني خاصة عندما تكون أمامي وأرى وجهها وعينيها تتألقان. أحب أن أرى وجهها يتحرك. أتوقف عن البكاء عندما أرى الرضاعة. أحب أن أضغضغ وأرى جيداً تماماً مثل أهلي.

ألعابي المفضلة هي الخشخاشة، والعدادة، والحلقات الملونة، والمرآة و «الكرسي الهزاز»...

عمري أربعة أشهر:

إن حركاتي متناظرة. عندما أكون نائماً على ظهري لا يميل رأسي جانباً.

أبقي رأسي مستقيماً عندما أكون جالساً ولكن بالطبع يتأرجح رأسي إذا هزوني بهدوء. عندما أكون نائماً على بطني أرفع رأسي وكتفي 90 درجة وأنظر من حولي. أستند إلى ساعديَّ. أحاول دائماً أن أستدير وأنتقل من النوم على ظهري إلى النوم على جانبي. أتسلى بجذب ثيابي نحو وجهي. أبدأ بتوجيه إبهامي نحو أصابعي الأخرى.

أضم يديَّ وألعب بهما. أحب أن أحدث ضجيجاً بالخشخاشة. لم تعد يداي مطبقتين باستمرار. أحرك ذراعي بسرعة عندما أرى ألعابي المفضلة. أحب أن أجلس إذا سندوني.

أعرف الأشياء التي ألفتها وأحرك ذراعي عندما أراها تتحرك. الأشخاص والأشياء لم تعد فقط كبيرة وصغيرة بل أصبحت كذلك قريبة أو بعيدة. يقال إنني أتعلم أن أدرك الأشياء. وأنا أقول إنني تدريجاً «أتذوق» العالم. وغالباً ما أكون صاخباً ومرحاً: إنها المناسبة لتصويري فوتوغرافياً! أحب أن أكون محاطاً وأقهقه بصوت عال. وأضحك عندما يدغدغونني. أزقزق وأهدل عندما يتحدثون إلـيّ. إنني ثرثار. وأدير رأسي نحو المكان الذي يصدر منه الصوت. أسمع جيداً مثل الكبار. أبكي عندما يبعد عن نظري شخص ألفته.

أحب الألعاب البلاستيكية اللينة أو الكاوتشوكية التي يمكن عضها والألعاب التي تصدر أصواتاً.

عمري خمسة أشهر:

أجلس بمساعدة بسيطة. وعندما أكون جالساً أحافظ على ظهري مستقيماً. وأسيطر جداً على توازن رأسي. أتقلب ظهراً لبطن. أحب الرياضة. أقابل إبهامي بأصابعي الأخرى بسهولة. أحاول التقاط الأشياء البعيدة عني. وأريّل دائماً.

أبتسم لنفسي في المرآة. إذا وقعت الخشخاشة أبحث عنها بعيني. عيناي تقودان يديّ: أمد يدي نحو الشيء الذي أريده وأفتح أصابعي قبل أن أصل إليه.

ألعب بلعبي. أضحك وأطلق أصواتاً أثناء اللعب. أصغي إلى الأصوات التي أصدرها وأكررها بدون كلل وعندما أتوصل إلى ذلك أقلد أصوات الآخرين. إنني

دائماً في أفضل مزاج وألعب وحدي إذا لم ينظر إليّ أحد. وإلاّ فإنني أفضل أن أهتم بزائري. . .

أحب أن أرشق الماء أثناء الحمام. وتمزيق الأوراق. وأصرخ عندما ينزعون مني شيئاً أريده.

أكتشف الأشياء بأصابعي وفمي. وأتعرف إلى صوت أمي من بين عدة أصوات. ولكن يحدث أحياناً أن أشعر بالضيق إذا نسي الآخرون مرور الوقت. أشعر فعلاً بانزعاج شديد إذا لم يحترموا نمطي وأوقات راحتي واختباراتي الأولى. لا تنسوا أن التجارب البناءة والمسلية تسمح لي بتنمية طباعي لذلك عليكم أن تجعلوني أعيش أكبر قدر منها!.

عمري ستة أشهر:

إذا كنت منبطحاً على بطني أستند إلى يديَّ وأمد ذراعيَّ كي يرفعوني. أرفع رأسي وأمد ذراعي كي أجذب نفسي لوضعية الجلوس. إذا كنت جالساً كما يجب يمكنني أن أبقى كذلك بعض اللحظات. يمكنني أن أمسك شيئين في وقت واحد، واحداً في كل يد. أحب أن أضرب بالأشياء الموجودة في يدي وكذلك أصفق بها حافة السرير. إذا كنت جالساً أستطيع أن أزحف إلى الوراء بحركات متقطعة مستعيناً بيدي ورجلي. إذا أُمسِكَ بي واقفاً أستند بقوة إلى ساقي. أحب أن أقف متمسكاً بقضبان سريري وأنا أنطنط. على كل حال، إنني أصرخ بقوة لأعبر عن فرحي. عندما أستلقي على ظهري أستطيع وضع أصابع قدمي في فمي. حاولوا أن تفعلوا مثلي. . ! أستطيع أن أمسك رضاعتي.

أبتسم وأنطق بأصوات أمام المرآة. أحب أن أزقزق وأهدل. عندما أسمع صوتاً أنظر في الاتجاه الذي أتى منه. إذا وقعت خشخاشتي أحاول أن أمسكها من جديد. أتمكن من إيجاد شيء مخبأ وراء منشفة إذا بقي جزء منه ظاهراً. اكتشفت أن بعض ألعابي قاسية في حين أن دبي المفضل لين.

إذا لم يعطوني ما أريد أحرك بعنف يدي ورجلي. وأصبح سيء المزاج إذا أخذوا مني لعبتي المفضلة. وعندما يلاعبونني بإخفاء الوجه خلف منشفة أضحك. أميز جيداً بين الوجوه المألوفة والوجوه الغريبة. وأحياناً أتصنع الحياء.

ألعابي المفضلة هي المرآة والرجّاحة والألعاب المتحركة المعلقة.

عمري سبعة أشهر:

إذا كنت نائماً على بطني أستند إلى يد واحدة. وإذا كنت على ظهري أرفع رأسي محاولاً الجلوس. أتمكن من الجلوس وأنحني إلى الأمام مستنداً إلى يدي.

ألعب بقدميّ وأضعهما في فمي. إذا أمسك بي واقفاً أضرب برجلي الأرض! أقفز فرحاً. . . أعرف كيف أقترب من اللعبة وأمسكها بيدي. أعرف كيف أنقل لعبة من يد إلى يد ولكن لا أنجح دائماً. أحب كثيراً أن ألهو بالأشياء الصغيرة، وفتات الخبز، الخ. أستدير بسهولة من الظهر إلى البطن. إذا قدموا لي لعبة بينما أمسك أخرى بيدي أحتفظ باللعبة التي هي معي.

أحب أن أضرب على الطاولة بالملعقة. أحاول أن ألتقط الأشياء بيد واحدة. أضع كل شيء في فمي. أتمكن من أكل بسكوتة دون مساعدة. أبدأ بالزحف. ألامس صورتي في المرآة. أحب أن ألقي بملعقتي وأن أنظر كيف وقعت. إذا أخفوا لعبتي تحت وشاح لا أعرف كيف أجدها. أقول «مه مه مه» عندما أبكي. أقول «دا با با دا با». أخاف من الغرباء أكثر فأكثر. صحيح أنني أنتقل بسرعة من الضحك إلى البكاء. أشعر أحياناً بشعور مزعج. فأتأثر عندها وأبكي بشدة. أسمعهم يقولون إنه بداية قلق الافتراق وأنني أكون «خائفاً». أحب أن ألعب بالورق، فعلى كل حال إن إضبارة الفحص عند طبيبي تتحدث عن هذه الأشياء. . أحاول أن ألفت الانتباه فأسعل أو أحدث ضجة. أشرب بالكوب. أمضغ الأطعمة الصلبة.

عمري ثمانية أشهر:

أتمكن من الجلوس بمفردي وأستطيع أن أبقى جالساً فترة طويلة. أستطيع أن أستند إلى ساقيـي بسهولة إذا أمسك بي. أمسك الأشياء بواسطة كماشة الإبهام والسبابة. أحاول التقاط الأشياء البعيدة عني. أستقبل الغرباء بجفاء أو بحياء. أرفض أن ألعب معهم. أخاف كثيراً إذا اقترب مني أحد الغرباء. أغمض عيني أو أخبئهما، أحياناً، كي لا يروني، أرفع ثيابي فوق وجهي وأنبطح على بطني وأنا أصرخ وأبكي. وأعرف أنني عندما أصرخ بشدة تضطر أمي إلى الاهتمام بي فقط.

أشعر بقلق شديد عندما أعرف أن الوجه الذي ينظر إلـيّ ليس وجه أمي. لا أدري لماذا أرفض كل الوجوه التي لا أعرفها. على العكس أجذب إلـيّ كل الذين أحبهم بأن أمد يدي لهم. أحب البعض. لا أحب أن يقال لي «لا». أنتقل بسرعة من الضحك إلى البكاء. قاموسي يتوسع: فأقول «بابا، دادا...» أحب أن أشارك بالألعاب الصغيرة من نوع «كوكو ها أنا»(لعبة الغميضة).

أحب أن أشد على حبل يصدر صوتاً موسيقياً. أحب أن أنزع سدادة المغسلة وأن أنظر إليها عندما تفرغ من الماء...

عمري تسعة أشهر:

أجلس بمفردي. وأستطيع أن أبقى جالساً على الأقل عشر دقائق. أستطيع أن أنحني إلى الأمام وأستعيد توازني. أضع المصاصة في فمي وأنزعها منه. أعرف أن أشرب رضاعتي وحدي. غالباً ما أستخدم يداً أكثر من اليد الأخرى. أعرف كيف أزحف. وأسير على الأربع. وأرفع جسمي على ساقيـي إذا ساعدوني. وأقف مستنداً إلى الأثاث. وألتقط الأشياء الصغيرة بين إبهامي والسبابة. أحب أن أرمي الفتات الذي أجمعه على أمي. أقرب مكعبين أحدهما من الآخر وكأنني أحاول مقارنتهما. أبدأ بتقليد بعض العبارات حتى تلك التي أسمعها على التلفزيون. إذا حيّتني أمي بيدها أفعل مثلها. إذا ألقت إلـيّ بطابة أردها لها. أنفعل عندما يغضب والداي: وأبكي عندما يوبخونني. إذا ظننت أن ما قمت به هو سيء أشعر بالانزعاج وأحرد. أتوقف عن القيام بحركة إذا هزت أمي رأسها وأومأت إلـيّ بأصبعها. أقول «بابا، ماما...». أضع يدي أمامي لأمنع أمي من غسل وجهي. لدى زيارة الطبيب قال هذا إنني أستطيع أن أقوم بحركة المظلة. هذا الطبيب غريب بعض الشيء... أوقعني إلى الأمام فحميت نفسي بوضع يدي أمامي. فهنأ أمي قائلاً لها إنني «طبيعي»! أبدي فرحة أكيدة عندما أرى الأطعمة التي أحبها. وأركز انتباهي على الأشياء التي أفضلها. أفهم الأوامر: «أعطِ، خذ...» أعرف اسمي. أحب أن يتحدثوا معي وأن يقرؤوا لي في المساء قصصاً قبل أن أنام. أكون تعيساً جداً عندما تذهب أمي وأبكي.

ألعابي المفضلة هي طابة من قماش، حيوان من فراء ناعم، مكعبات ملونة

ليس لها حروف حادة، لعبة للاهتزاز. . . عندما أريد لعبة يجب إعطائي إياها بسرعة وإلاّ أغضب.

وبالأخص يجب أن تكون اللعبة نفسها وليست تلك التي إلى جانبها! أعرف تماماً ماذا أريد. منهم من يقول إنني أصبحت لا أطاق. . .

عمري عشرة أشهر:

أجلس بسهولة وأبقى جالساً ما شئت ذلك. لا أحب أن أبقى نائماً. وعندما أكون جالساً أعرف كيف أنام على بطني. إذا ساعدوني أحاول أن أمشي. أنهض على ساقيّ متمسكاً بحافة السرير. أمشي على الأربع وأتقدم وقوفاً متمسكاً بالمفروشات. أعرف أن آكل بسكوتاً وحدي. أعرف أن أضم يدي. أقدر أن أترك الشيء الذي أمسكه إذا أردت.

ألفظ كلمة أو كلمتين وأقلد صوت الكبار، أجيب إذا سمعت اسمي. أحب ألعاب الغميضة مثل «كوكو». أشد على ثياب الكبير لجذب انتباهه. أعرف حركة التصفيق «براڤو» والوداع «أوروڤوار». ألاطف لعبتي. أمد ذراعي أو ساقي عندما يلبسونني ثيابي. أبدأ بالتقليل من التريل ولا أضع كل شيء في فمي. أفهم بعض الممنوعات.

ألعابي المفضلة هي العلب والأكواب (علب اللبن الصغيرة)، وترصيفها وإدخال الواحدة بالأخرى، وحلقات البلاستيك التي أدخل فيها محوراً. . .

عمري أحد عشر شهراً:

أقف ممسكاً بيد أمي أو مستنداً إلى قضبان سريري. أتنقل جانبياً متمسكاً بالمفروشات. أمشي جيداً. . . شرط إمساكي باليدين! عندما أكون جالساً أعرف كيف أستدير كي ألتقط شيئاً.

أعرف كيف أدحرج طابة صوب أبي. أعرف أن أقلد شيئاً ما حتى لو لم يكن النموذج أمامي. ألعب لعبة إعطاء وأخذ الألعاب من يدي أبي وأمي. إذا قمت بشيء يضحك الكبار فإنني أكرره. أحب الألعاب التكرارية وأضع المكعب وراء الآخر في السلة.

إذا أنشدتم لي «عِذْية» فإنني أترجّح. أحب أن يروني صوراً بسيطة. أرفع الغطاء لالتقاط اللعبة المخبأة تحته. أعرف أن أقلد غمزات العين وحركات الفم رغم أنني لا أرى نفسي بهذه الحركات.

أنتقل بسرعة من الضحك إلى البكاء. . .

عمري اثنا عشر شهراً (سنة):

أمشي على الأربع مثل الدب. أقف وحدي على ساقيي لمدة طويلة إلى حد ما. إذا ساعدوني أسير ملامساً الحيطان. أتقدم من أثاث إلى آخر إذا أمسكوا بيدي. عندما أكون واقفاً أستطيع الجلوس بدون مساعدة. يمكنني أن أقرفص لالتقاط شيء. يمكنني الإمساك بقلم والخربشة على ورقة. أحب التقاط فتات الخبز وأكله. أعرف أن أشرب بالكوب وأن آكل بالملعقة إذا ساعدوني. أساعد أمي عندما تلبسني ثيابي. على كل حال أنا أعرف كيف أخلع جواربي. . . إنها بداية الاستقلالية. أليس كذلك؟.

قوموا بهذه التجربة الصغيرة يا والدي. خبئوا شيئاً تحت وشاح. سترون أنني أعرف أن أرفع الوشاح لإيجاد الشيء. بالطبع إذا وضعتم ثلاثة أوشحة فوق بعضها فسأرفع واحداً منها ولكن فيما بعد أتراجع عن البحث.

أعرف أربع أو ست كلمات. أعرف اسمي وعندي لغتي الشديدة التعبير. لا أحب إعطائي الأوامر وأفهم جيداً عندما يقال لي «لا». أفهم الأسئلة البسيطة من نوع: «أين كتابك؟»، «أين حذاؤك»، «إجلس»، «قف»، «تعال». . .

إنني كائن حي تغمره المشاعر: أبدي شعوراً بالغيرة، بالعاطفة، بالغضب، بالحقد، بالفرح، باللذة. . . أحب أن أكون محاطاً. أتصلب وأتوتر عندما أغتاظ. أعطي قبلة عندما يطلب مني ذلك، وأعرف أن أقوم بحركة الوداع «أوروڤوار» باليدين. أحب الموسيقى والإيقاع. أتودد وأقوم بإيماءات لأحصل على ما أريد.

في الحقيقة إنني شديد الأنوية وأهتم خاصة بنفسي. لم أعد أضع الأشياء في فمي. ولم أعد أريل تقريباً (إلاّ إذا كنت مستغرقاً في اللعب).

عمري ثلاثة عشر شهراً:

أستطيع أن أمسك مكعبين في كل يد. أعرف أن أرسم خطوطاً بالقلم. أمام المرآة، أقبل الولد الذي يشبهني وأراه قبالتي. منذ بعض الوقت ما تنفك أمي تقول لي «لا» وتهز رأسها وتمنعني من متابعة ما كنت أقوم به. لذلك أنا أيضاً أقول لها «لا» عدة مرات كي ترى أنني فهمت أوامرها. كما أقول لها أيضاً عندما تقوم بعمل لا يعجبني، لا أدري لماذا لا تصغي إلـيّ دائماً وأحياناً تتظاهر بعدم الفهم. وتقول إنني غير واعٍ ولا أخاف من الخطر. فهي يمكنها الآن أن تأمرني وتقودني حتى عن بعد. ولكن أحياناً أتصنع بأنني لم أفهم وأختبىء في إحدى الزوايا.

عمري أربعة عشر شهراً:

أمشي بمفردي. وأعرف غرفتي غيباً. وأحب التنقل لاكتشاف غرف المنزل الأخرى. إلاّ أنه يحدث أحياناً أن أكون في الغرفة المجاورة فأشعر فجأة بالحاجة إلى إيجاد أمي. فإذا رأيت أنها ما زالت هنا، أذهب بهدوء لأنني أعرف أنها لم تذهب. ألفظ كلمة أو كلمتين وأقلد صوت الكبار. أستجيب لدى سماع اسمي. أحب ألعاب الغميضة مثل لعبة «كوكو». أجذب ثياب الشخص لألفت انتباهه. أعرف أن أقوم بحركات التشجيع «برافو» والوداع «أوروڤوار». ألاطف لعبتي. أمد يدي أو رجلي عندما يلبسونني ثيابي. بدأت أقلل من التريبل ولا أضع كل شيء في فمي. أفهم بعض الممنوعات. عندما أجد شيئاً أجهله أحاول أن أعرف ماذا هو: فأعضه، وأرى ما بداخله، وأحركه إلى أن أفهم كيف هو مصنوع!.

عمري خمسة عشر شهراً:

أقف وأركع بمفردي. أصعد الدرج على الأربع ولكن إذا أمسكوا بيدي أستطيع أن أصعد وأن أنزل واقفاً. أمشي مُبعداً بين ساقي للمحافظة على توازني وأرفع رجلي عالياً جداً. وأقوم بخطوات غير متساوية. أحب تقليب المكعبات في كل الاتجاهات. فأرميها في الهواء وألتقطها وأرميها من جديد أو أحاول رصفها. أعرف أن أبني برجاً من مكعبين أو ثلاثة. أحب أن أفتح العلب وأن أضع أصبعي في الثقوب... أعرف كيف أخلع حذائي. أهوى اللعب أمام المرآة: أحرك يدي، أصفق، أراقب الحركات... في السابق عندما كنت أجد نفسي في وضع جديد

وحساس لم أكن أعرف اختراع الحلول. عندما تكون لعبة بعيدة عني لم أكن أعرف كيف أصل إليها. آه! كنت أحاول بعض الشيء ولكن لم أكن أنجح، فكنت عندئذٍ أبكي وتأتي أمي لمساعدتي. أما الآن فعندي الكثير من الأفكار. وأصبحت قادراً على «استباق» الأمور، مثلاً: أستطيع استخدام قضيب لتقريب شيء ما إلـيّ أو سحب شرشف الطاولة حيث يوجد شيء أريد التقاطه. أبي يلعب معي، أمس خبأ أبي دبي الذي هو من فراء خلف الكنبة فوجدته. عندئذٍ خبأه خلف الخزانة ظاناً أنني سأبحث عنه خلف الكنبة. فعرفت على الفور أنه مخبأ في مكان آخر... خطرت له حتى فكرة أن يخبىء سيارة صغيرة في علبة وأن يخبىء العلبة في سريري تحت الأغطية. عندما أخرج العلبة كانت فارغة. كنت في السابق غير قادر على إيجاد السيارة الصغيرة. فقد خبأها تحت الأغطية! وأمي تقول إنني لا أدرك سوى التنقلات العيانية للأشياء.

عندما أرغب في الحصول على لعبة أو شيء أدل عليه بأصبعي. أقول حوالي عشرة كلمات ولكنني أفهم حوالي العشرين. أحب أن ألامس وأقبل الصور في الكتب. وأهوى قول: «لا»...

أحاول أن آكل بمفردي. أمسك الفنجان مطوّقاً إياه بجميع أصابعي. في الواقع لا أنكر أنني غالباً ما أحني الفنجان كثيراً فينسكب محتواه على الأرض وتقوم أمي باستمرار بإحضار الممسحة. ولكن يجب أن أتعلم رغم ذلك. أضع الملعقة في الصحن ولكن أجد صعوبة في ملئها كما يجب. وهنا أيضاً أحياناً كثيرة تنسكب الملعقة قبل أن تصل إلى فمي... شيء غريب، علـيّ أن أدرس هذه الظاهرة...

أتكلم جيداً بلهجة أتعجب كثيراً كيف أن لا أحد يفهمها. شيء شديد الغرابة.

عندما أبوّل في حفاظي أخبر أمي. لماذا تريني دائماً هذا الوعاء المستدير والغريب والذي تسميه «الإناء»؟ طبيبي يقول إنه ما زال أمامي كثير من الوقت...

ألعابي المفضلة هي لعبة لينة، ألعاب تعوم في المغطس، أكواب، أو علب ملونة بألوان زاهية، ألعاب تجر أو تدفع.

عمري ثمانية عشر شهراً:

أصعد السلالم بدون مساعدة متمسكاً بالدرابزين. أركض وأقع أقل بكثير من

السابق. ألاحظ أن طريقة مشيـي طبيعية. أعرف أن أمشي جانبياً وأن أعود إلى الوراء. أعرف أن أجلس على كرسي بدون مساعدة متسلقاً: أصعد إلى الكرسي أستدير وأجلس. أحب أن أجر لعبة ورائي وأمشي. أستطيع أن أدفع المفروشات الصغيرة حول الغرفة. أتسلق المفروشات. أستطيع أن ألقي بالطابة بدون أن أقع. أعرف أن أبني برجاً من ثلاثة مكعبات. عندما أتصفح كتاباً أقلب صفحتين أو ثلاثاً في وقت واحد. أخربش بلذة كبيرة إذا أعطوني ورقة وقلماً: أحاول أن أرسم خطوطاً مستقيمة ولكن الأمر صعب بالنسبة إلـيّ.

أعرف أن أفتح السحابات. إذا أعطوني فنجاناً أقرّبه من شفتي وأشربه كما يجب. ثم أعيد الفنجان إلى أمي أو أدعه يسقط أرضاً: وذلك حسب الأيام.

أستطيع أن أملأ ملعقتي ولكن أجد صعوبة بوضعها في فمي. عندما أقربها من فمي أتوقف عن قلبها ولكن أعترف بأنني غالباً ما أوقع ما فيها. فتصرخ أمي ولكن ما بيدي حيلة. . .

إذا أروني كتاباً أعرف أن أميّز فيه صور السيارات والقط. . . أبدأ بتأليف جمل من صفات وأسماء. أدل على بعض الأشياء إذا طلب مني ذلك بتهذيب: القلم، الحذاء، الطابة، السكين، الشوكة. . . كذلك يمكنني أن أدل على أنفي، عيني، فمي. . . أقلد حركات أمي. أعرف أن أنفذ أوامر بسيطة: «إعط هذا للبابا»، «ضع هذا على الطاولة». . . أحب أن أوقع الأشياء بعدة طرق لأرى كيف تكون النتيجة.

اشترت لي أمي «إناء». لم أدرك ما الفائدة منه. . . أحب أن ألطخ الحيطان ببرازي.

أحياناً «أرتخي» أثناء الأكل. عندي لعبة أفضلها على سواها وأحب أن أنام معها. الجميع يقولون عني إنني مستكشف من الدرجة الأولى. صحيح أن انتباهي ينتقل بسرعة من شيء إلى آخر. أتنقل بسرعة وأبحث في كل الأمكنة مستكشفاً الجوارير والخزانات. أعرف أنه عمر خطر. لذلك خبأ أبي الأدوية ومواد التنظيف وغلّف مآخذ الكهرباء. لا يجوز معارضتي لأنني أغضب. لا أحب النوم بل أقاومه مستدعياً أمي.

عندما أرى نفسي في المرآة أدور وأهرب.

عمري واحد وعشرون شهراً:

أقلد السير التراجعي. ألتقط شيئاً عن الأرض دون أن أقع. أصعد السلالم واضعاً قدماً بعد الأخرى على كل درجة. أعرف أن أبني برجاً من خمسة أو ستة مكعبات.

عندما أرى شيئاً يلفت نظري أشد من حولي لأريهم إياه. أعرف أكثر من أربعة أجزاء من جسمي. أستطيع أن أطيع ثلاثة أوامر متتالية بسيطة: «اعط هذا للبابا»، «ضعه على الأريكة»، «ضعه على السرير». أستطيع أن أتذكر ما حدث منذ بضع ساعات شرط أن يكون له علاقة بما يحدث الآن. أستطيع توقع نتيجة ما أرغب في القيام به. بنيت منزلي تماماً كما أرغب بقطع البلاستيك الصغيرة. وأمي تدفعني إلى بناء بيوت أخرى مختلفة. أجد سعادة في أن يعاونني أحد فيما أعمل!.

أجمع بين كلمتين. وأكرر ما يقال لي. أطلب الطعام والشراب والجلوس على «الإناء».

عندي مشاكل كبيرة في النوم. وأحتاج إلى طقوس معينة لكي أذهب إلى الفراش.

ألعابي المفضلة هي الكتاب المصور، ألعاب أمارسها على الرمل، أكواب من أحجام متدرجة متداخلة، ألعاب تركيبية.

عمري سنتان (24 شهراً):

طريقتي في السير أصبحت أمتن وأكثر انتظاماً. نادراً ما أقع عندما أركض، ويحصل أحياناً أن أشرد لأرى ماذا يجري في مكان آخر. يمكنني أن أركض وألقي بالطابة دون أن أقع. بدأت أتعلم القفز (ولكن أعترف بأن طريقتي ما زالت بدائية). أصعد وأنزل الأدراج بمفردي، واضعاً قدماً بعد الأخرى عل كل درجة متمسكاً بحافته. أستطيع أن أبني برجاً من ستة أو سبعة مكعبات متوازنة. أقلب صفحات الكتاب صفحة صفحة. أهوى إدارة المفاتيح وإقفال الأبواب. أعرف كيف أرتدي

جواربي وحذائي وبنطلوني. أغسل يديَّ وأنشفهما. أستطيع أن آكل بالملعقة. وأنا فخور جداً بقدراتي الحركية.

عندما أمسك القلم بقبضتي المطبقة أستطيع رغم ذلك أن أقلد رسم الخطوط العمودية. أطيع أربعة أوامر بدائية. ألعب بقرب الأولاد الآخرين ولكن ألعب وحدي. صحيح أنني أتصرف وكأن الأولاد الآخرين هم أشياء أضمها بين ذراعي أو أبعدها عني. إلاّ أنني أحب أن يكون عندي أصدقاء ولكن لا أعرف كيف يجب أن أتصرف. لقد قال طبيب الأطفال إنني ما زلت في مرحلة «اللعب بالموازاة». ولم أفهم شيئاً... وقال إنه ليس هناك من تفاعل مع الأولاد الآخرين حتى ولو كانت ألعابنا متشابهة. ومع ذلك أحقق «تفاعلات» معهم: آخذ ألعاب رفاقي، أرفسهم بضربات من رجلي، أشد شعورهم...

نادراً ما أطلب المساعدة. أساعد أمي عندما تنزع عني ثيابي وأعرف أن أرتدي بمفردي ثياباً بسيطة. إنني أتعلم كيف أرتب لعبي. أحب أن يرووا لي قصصاً عندما يرونني صوراً. أتعرف إلى ثلاث صور على الأقل عندما يسألونني «ما هذا؟» ولكن يمكنني أن أدل على خمس صور على الأقل عندما يسألونني ببساطة «أين هذا؟».

أركب جملاً من ثلاث أو أربع كلمات وأستطيع أن أركب جملاً نافية واستفهامية. أعرف على الأقل 300 كلمة. أستخدم «إنني، أنت، أنا». عندما أتكلم عن نفسي أقول اسمي.

أكره أن أتقاسم الشيء مع غيري. أعرف بشكل واضح تماماً ما هو لي ولكن أجد صعوبة في فهم أن الآخرين بإمكانهم أن يملكوا أشياء لأنفسهم... يتهمونني بأنني «أنوي». وبالنسبة إليهم لا أستطيع أن أفترض نفسي مكان الآخرين. فأنا لا أكاد أدرك من أنا فكيف يطلب مني أيضاً أن أفترض نفسي مكان غيري! إن الكلمة المفضلة لدي هي كلمة «لا»، لأن هذا يسمح لي بتأكيد ذاتي من خلال معارضة المحيطين بي. إنني حقيقة ثرثار... لا أتوقف عن الكلام.

إنني نظيف في النهار وأطلب الجلوس على «الإناء» أو الذهاب إلى الحمام. أقلل من مص أصبعي. لا أميز بعد بين الشر والخير. لا أحب أن يخرج والداي.

أحب أن ألعب بالسيارات، وأن أضع الخرز في علبة ومن ثم تفريغها، جر قطار من مكعبات متداخلة. . . ألعب لعبة تقليد أعمال أهلي.

إنني بحاجة إلى طريقتي الخاصة لكي أنام ولا أتوقف بالفعل عن الطلب من أمي وأبي أشياء باستمرار كي أؤخر إلى أقصى حد ساعة النوم. أعرف نفسي في المرآة. يمكنني أن أقلد حركة دون أن أراها أمامي. أبدأ بواسطة تفكيري أن أحل مسائل صغيرة إذا لم تكن شديدة التعقيد. أعرف أن شيئاً ما هو موجود حتى لو لم أره أو لم أمسكه: يقول طبيب الأطفال إن هذا ما يسمى «بالتصور العقلي». أعرف مثلاً ما سوف يحدث إذا دفعت بعربتي إلى الأمام.

ألعابي المفضلة هي طابة، ألعاب تركيب من خشب أو من بلاستيك مع أشخاص وحيوانات وحوائجها، وخرز من القياس الكبير الذي ينظم في الخيطان. . .

عمري سنتان ونصف (30 شهراً):

أقفز على قدمين مضمومتين. أسير على رؤوس أصابعي وأقف على رجل واحدة. أستطيع أن أحمل كأساً مليئاً بالماء دون دلقه. يمكنني أن أرمي طابة مسافة متر أو مترين وأن أبني برجاً من ثمانية مكعبات. أمسك قلماً بأصابعي ويمكنني أن أرسم خطاً أفقياً وعمودياً. أسمّي على الأقل خمسة أشياء موجودة في كتاب مصور (كلب، كوب، بيت، حذاء، علم، ساعة، نجمة، ورقة، ورقة شجر، كتاب. . .). أكتشف قضيبي وكثيراً ما أذغدغه.

إنني في صميم عمر «اللا». بدأت أعي نفسي كفرد وأحاول أن أسيطر على بعض جوانب تصرفي كي أخضع للمقتضيات الاجتماعية. أعرف أن أقول اسمي واسم عائلتي. أساعد في ترتيب الأشياء. أعرف أن أذهب إلى الحمام لقضاء حاجتي ولكن ما زلت لا أعرف أن أنظف نفسي جيداً.

ألعابي المفضلة هي الصور الخشبية المفككة إلى قطع (Puzzles)، ألعاب التركيب المتداخلة، الحصان الهزاز. . .

عمري ثلاث سنوات (36 شهراً):

لقد قال أحدهم ويسمى جيزيل يوماً: «ثلاث سنوات هي نوع من النضج». أليس ذلك مضحكاً؟.

أعرف أن أشد انتباه الكبار إليّ. أعرف متى أطلب من أمي المساعدة عندما يكون هناك أمر يصعب عليّ القيام به. كما أعرف كيف أعبر عن مشاعري أو عن انزعاجي تجاه الأشخاص الكبار والأولاد الآخرين من أترابي. أحب أن أقود أو أن أتبع الأولاد الذين هم في مثل سني وأن أقيس نفسي بهم. أشعر بالفخر عندما أنجح بالقيام بشيء معقد. أحب أن ألعب الأدوار أو أن «أتصنع دوراً ما». يُقال عني إنني أتكلم جيداً. أنتبه إلى التفاصيل الصغيرة أو الأشياء التي لا تكون بحالة سليمة. أتوقع نتائج أعمالي. والمفاهيم المجردة لم تعد تخيفني. أستطيع أن أتخيل أشياء حتى لو لم أرها. أستعين بخيالي لاختراع طرق جديدة في اللعب. فإذا رغبت بحصان أبيض أستطيع أن أقرر أن كرسيّ هو هذا الحصان وألعب به طوال النهار على أنه كذلك. أستطيع أن أفترض نفسي مكان غيري فأتخيل وأنجح في نشاطات متعددة... أعرف كيف أستخدم بنجاح الإمكانات المتوفرة لديّ وأصبح قادراً على التركيز على شيئين في وقت واحد.

أصعد السلالم بوضع رجل بعد الأخرى على كل درجة وأنزل بوضع الرجلين معاً على كل درجة ولكنني أقفز عند الدرجة الأخيرة. أستطيع أن أبقى متوازناً على رجل واحدة عدة ثوان. كما أحاول أن أرقص بالرغم من حاجتي إلى بعض التوازن. أسير إلى الوراء. أحب كثيراً دراجتي التي أمتطيها وأقودها. يمكنني أن أبني برجاً من تسعة أو عشرة مكعبات. أتمكن من سكب سائل من كوب في كوب آخر. أبدأ حتى باستخدام المقص. أمضي كثيراً من الوقت قرب منضدة العمل حيث مساميري وحزقاتي الخشبية. أعرف أن أغرز الأوتاد الخشبية الكبيرة في اللوحة المثقوبة بواسطة الشاكوش. أدخل حبات كبيرة في الحبل. ألبس وأخلع ثيابي بمفردي إذا ساعدوني فقط بالأزرار. ولكن يجب مع ذلك أن تريني أمي أين هو الأمام والوراء في الألبسة. الشيء نفسه بالنسبة إلى الأحذية؛ عليها أن تدلني على حذاء اليمين وحذاء الشمال. أفكّ الأزرار التي أراها. ألبس دبي ذا الفراء وأنزع عنه ثيابه. أعرف أن أحمل الصحون وأساعد أمي في وضع الشوك والملاعق، في تنشيف الجلي وتنظيف الغبار. وعندما أتذكر أذهب إلى الحمام. فأغسل يدي وأنظف أسناني. صحيح أنني أطرح الأسئلة بدون توقف. أعرف أنني

صبي وأعرف اسم عائلتي. أبدأ بفهم ما هو الماضي والحاضر والمستقبل. أعرف ثماني صور إذا طلب مني أن أدل عليها. أكرر مرة من ثلاث مرات ثلاثة أرقام بالتتالي. يمكنني أن أكرر جملة من ستة مقاطع وأن أستخدم الجمع مع مفردات عددها 300 كلمة. أبدأ بفهم فائدة استخدام أدوات التعريف والضمائر والحال. إنني فعلاً ثرثار وأتكلم بطلاقة وثقة دون الاهتمام، حقاً، بمعرفة ما إذا كان أحدهم يصغي إلـيّ. أعرف بعض الأغاني الطفولية وأبدأ بالاهتمام بالألوان. أعرف أن أعد إلى العشرة. أحب اللعب مع الأولاد الآخرين وأصبح اجتماعياً شيئاً فشيئاً. أقبل بانتظار دوري إذا كان ذلك ضرورياً. أعرف أن أبني جسراً مع ثلاث مكعبات. أحب الرسم سواء طلب مني ذلك أم لا. فأرسم دائرة أو صليباً. حتى إنني أحاول أن أرسم شخصاً. لا أبوّل تحتي في السرير ولكني ما زلت بحاجة إلى بعض الملاطفة في المساء. أخاف من العتمة ومن الحيوانات. يقول طبيب الأطفال إنني في صميم أزمة الشخصية لأنني أعارض بشدة الآخرين وذلك لتأكيد شخصيتي.

عمري أربع سنوات:

أرسم مربعاً وأسمي أربعة ألوان. أعرف أن أقول عمري. أهوى العبارات البرازية («كاكا، مصران»). مخاوفي الطفولية أصبحت تدريجاً مجردة: أخاف من الفشل، من الموت... أعرف أكثر من خمسة عشر فعلاً حركياً.

أهوى اللعب بأقلام التلوين والتلوين بالأصابع، والمعجونة اللينة، والمقص، أوتاد البولينغ الكبيرة، الرسوم الكرتونية المقطعة، الأدوات، الخرز...

عمري ست سنوات:

أعرف اليمين من الشمال. أنقل رسم المعيّن وأعد إلى العشرة. أميز بين الصباح والمساء وأبدي اهتماماً بالنشاطات المدرسية بما أنني أبدأ بتعلم القراءة والكتابة. وأعرف أن أحدد الأشياء من خلال استخدامها.

أهوى التنكر بثياب وحاجات مختلفة. أحب أيضاً الكتب وحبال القفز.

ببليوغرافيا

Ainsworth M., *L'attachement mère-enfant*, Paris, Enfance, 1983, 1-2.
Ajuriaguerra J. de, *Manuel de psychiatrie de l'enfant*, Paris, Masson, 1980.
Ajuriaguerra J. de, Marcelli D., *Psychopathologie de l'enfant*, Paris, Masson, 1984.
Amado G., *L'affectivité de l'enfant*, Paris, PUF, coll. « Sup ».
Baudonnière P.-M., *Étudier l'enfant de la naissance à trois ans*, Paris, CNRS, 1985.
Brazelton T. B., *L'âge des premiers pas*, Paris, Payot, 1985.
Brazelton T. B., *Les premiers liens*, Paris, Calmann-Lévy, 1991.
Château J., *La psychologie de l'enfant en langue française*, Toulouse, Privat, 1979.
Cramer B., *Profession : bébé*, Paris, Calmann-Lévy, 1989.
Deleau M., *Les origines sociales du développement mental*, Paris, Armand Colin, 1990.
Dodson G., *Tout se joue avant 6 ans*, Paris, Laffont, coll. « Réponses », 1985.
Dolle J.-M., *De Freud à Piaget, éléments pour une approche intégrative de l'affectivité et de l'intelligence*, Toulouse, Privat, 1977.
Dufoyer J.-P., *La naissance et le développement de la personnalité dans la première année de la vie*, Paris, PUF, 1976.
Flehmig I., *Le développement du nourrisson normal. Ses déviations minimes. Diagnostic précoce*, Paris, Masson, 1994.
Fraiberg D., *Les années magiques : comment comprendre et traiter les problèmes de la première enfance*, Paris, PUF, 1991.
Gassier J., *Manuel de développement psychomoteur de l'enfant*, Paris, Masson, 1982.
Gratiot-Alphandéry H., *Traité de psychologie de l'enfant*, Paris, PUF, 1970.
Hamberger L., *Naître*, Paris, Hachette, 1990.
Herbinet E., *L'aube des sens*, Paris, Stock, 1991.
Illingworth R. S., *Abrégé du développement psychomoteur*, Paris, Masson, 1978.
Koupernik C., Dailly R., *Développement neuro-psychique du nourrisson*, Paris, PUF, 1980.
Lebovici S., *Le nourrisson, la mère et le psychanalyste*, Paris, Le Centurion, 1983.
Lebovici S., Diatkine R., Soulé M., *Traité de psychiatrie de l'enfant et de l'adolescent*, Paris, PUF, 1985.

Lecuyer R., L'intelligence des bébés, *La Recherche*, n° 136, p. 1158-1165, 1991.
Mahler M., *La naissance psychologique de l'être humain*, Paris, Payot, 1980.
Martino B., *Le bébé est une personne*, Paris, J'ai lu, 1987.
Mehler J., *Naître humain*, Paris, Odile Jacob, 1990.
Montagu A., *La peau et le toucher. Un premier langage*, Paris, Seuil, 1979.
Nadel J., *Imitation et communication entre jeunes enfants*, Paris, PUF, 1986.
Osterrieth P., *Introduction à la psychologie de l'enfant*, Paris, PUF, 1976.
Piaget J., *Psychologie de l'enfant*, Paris, PUF, 1986.
Relier J.-P., *L'aimer avant qu'il naisse. Le lien mère-enfant avant la naissance*, Paris, Laffont, 1994.
Restak R., *Le cerveau de l'enfant*, Paris, Laffont, 1988.
Roulin D., *Le développement du langage*, Paris, Maloine, 1980.
Saint-Anne Dargassies S., *Le développement neuro-moteur et psychoaffectif du nourrisson*, Paris, Masson, 1982.
Schonen de S., *Le développement dans la première année*, Paris, PUF, 1983.
Simmonet D., *Vivent les bébés : ce que savent les petits d'homme*, Paris, Seuil, 1986.
Stern D., *Mère/Enfant, les premières relations*, Paris, Mardaga, 1981.
Streri A., *Voir, atteindre, toucher*, Paris, PUF, 1991.
Tourette C., *D'un bébé à l'autre : les différences individuelles au début du développement*, Paris, PUF, 1991.
Tremblay R. E., Provost M. A., Strayer F. F., *Éthologie et développement de l'enfant*, Paris, Stock/Laurence Pernoud, 1985.
Zazzo R., *La première année de la vie : recueil de travaux internationaux*, Paris, PUF, 1986.

فهـــرس

عويدات للنشر والطباعة 1027 / 2001

LYONEL ROSSANT

L'ÉVEIL PSYCHOMOTEUR DU JEUNE ENFANT

Traduction arabe

de

Dr.Georgette El HADDAD

EDITIONS OUEIDAT

Beyrouth - Liban

زدني علماً
249

التفتُّح النفسي ـــ الحركي
عند الطفل

يقدم هذا الكتاب دراسة مستفيضة في مجال علم نفس الطفل ويشكل مرجعاً أساسياً للباحثين والطلاب المهتمين بهذا الموضوع. كما أنه يتوجه في الوقت نفسه إلى الأمهات والآباء الذين يعيشون تجربة الأمومة والأبوة ليضع لهم منطلقات أساسية تساعدهم في فهم نفسية أطفالهم وتتبع تطورهم من خلال الانتباه لمراحل نموهم وما تتضمنه كل مرحلة.

إن علم النفس بفضل الأبحاث والدراسات التي قام بها العلماء والأطباء والتربويون يفاجئنا حين يعيد الإنسان ليس فقط إلى وضعه في أحشاء أمه التي حملته، بل أكثر من ذلك إلى الفكرة المستقرة في عقل الوالدين وخيالهما عنه وحتى إلى أبعد من ذلك أيضاً إلى مسيرة حياة أهله ونفسيتهم وشخصيتهم وتاريخهم...

وقد جاء دفتر يوميات الطفل الصغير
الكتاب ليتوّج عملاً أخذ الصفتين العملية وال
وهذه اليوميات هي لسان حال الطفل الذي ي
مفصل ودقيق تطورات حياته خطوة خطوة ع
الفكري والحسي والحركي والنفسي... وهي
تكون روزنامة للأمهات الحديثات تطلعهن على
حياة أطفالهن هي مدعاة للتعجب والفرح في الوقت نفسه.

EDITIONS OUEIDAT
B.P. 628 Beyrouth